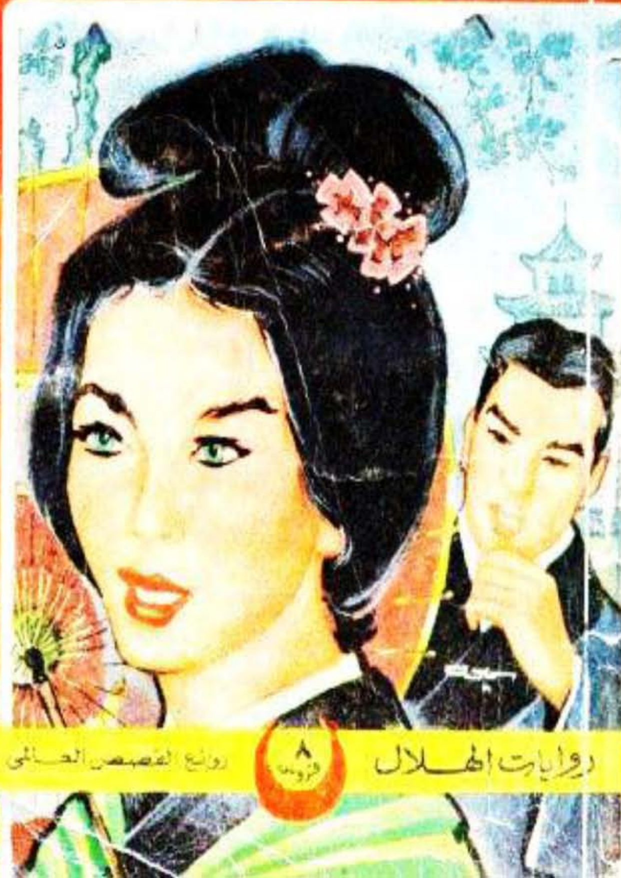
غادة اليابان

بيرل بك



روايات الهلال
٨ قروش
روائع القصص العالمي

روايات الهلال
مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

هذه الروايه

تقدم لنا الروائية العالمية « بيرل بك » فى هذه القصة الشائقه صورا جديدة نابضة من مختلف صور الحياة فى الصين واليابان . وليس هناك من يفوق « بيرل بك » فى الكتابة عن الصين واليابان .. هذه البلاد التى عاشت فيها معظم سنوات حياتها ، واحبتها وكرست قلمها للكتابه عنها ..

وهى فى هذه القصة ، تحدثنا عن حب شاب صينى لفتاة يابانية حسناء ، وعن الصراع الذى خاضه الشاب ليظفر بالفتاة الحسناء من يدى جنرال يابانى عجوز واسع النفوذ كان مصرا على الزواج منها ، وتمضى الكاتبة تصور لنا معنى الحب فى قلب الفتاة اليابانيه بالذات ، ومعنى الحياة الزوجية فى نظرها ، وهل حقا ما يقال فى انحاء العالم بان الزوجة اليابانية هى احسن زوجة فى العالم ؟

ولعل أشد ما يحرك النفس ويثير الشجن ، هذه الصور الجميلة للحياة فى مدينة ناجازاكى قبل ان تقضى عليها تماما تلك القنبلة الذرية الآثمة التى ستظل وصمة عار عالقة بجبين الانسانية مدى الدهر .. لسوف نرى كيف كان سكان تلك المدينة الجميله يعيشون آمنين كادحين فى بيوت انيقه تحيط بها الحدائق الزهراء والبساتين المثمرة ، وكيف كانوا يجدون ويلعبون، ويستمتعون باطيب الحياة!

غادة اليابان

المؤلفه

* بيرل بك كاتبة كبيرة امريكية المولد قضت معظم حياتها فى الشرق الاقصى
* أول رواية كتبتها هى رواية « ريح الشرق » ثم كتبت « ريح الغرب » ثم «الارض الطيبة» .. وبعدها روايات أخرى كثيرة
* حائزة على جائزتى بوليتزر ، ونوبل
* هذه الرواية « غادة اليابان » تعتبر من أحسن رواياتها التى كتبتها



غادة اليابان

بقلم الروائية العالمية

بيرل بك

مؤلفة الرواية

ولدت «بيرل سيدنستريكر بك » Pearl Sydenstricker Buck في بلدة (هيلز بورو) بولاية فرجينيا الغربية بأمريكا يوم ٢٦ يونية سنة ١٨٩٢ ، وقبل أن تتم السنة الاولى من حياتها سافرت الى الصين حيث كان ابوها يشتغل بالتبشير . ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرها التحقت بمدرسة داخلية فى شنغهاى . ثم عادت لامريكا بعد سنتين والتحقت بكلية « راندولف ــ ماكون »

ولما عادت الى الصين قضت سنوات فى شمالها ، ثم انتقلت الى مدينة نانكين حيث عملت مدرسة للاداب الانجليزية بجامعتها ، ثم عملت فى الجامعة الجنوبية الشرقية ، ثم فى جامعة « شنج ــ يانج »

وفى سنة ١٩٢٥ عادت الى امريكا حيث حصلت على درجة الاستاذية من جامعة « كورنيل » وفازت بجائزة « لورا مسنجر » للتاريخ عن موضوع « الصين والغرب »

واول رواية اخرجتها هى « ريح الشرق » التى الفتها خلال رحلتها الثانية لامريكا . ثم اخرجت رواية « ريح الغرب » فى سنة ١٩٣٠ . وفى السنة التالية اخرجت رواية «الارض الطيبة» فاعجب بها النقاد جميعا ، لدرجة أنها ظلت واحدا وعشرين شهرا فى طليعة الكتب الشديدة الرواج

وظهرت لها بعد ذلك رواية « الابنــاء » ــ وهى تتمة لرواية « الارض الطيبة » ــ فى سنة ١٩٣٢ . وقد وصفها وليم ليون فيلز بأنها من المؤلفات الممتازة فى العصر الحديث . ثم ظهر الكتاب الاخير عن أسرة وانج فى سنة ١٩٣٥ باسم « بيت منقسم على نفسه » . وصارت الروايات الثلاث تباع فى مجلد واحد بعنوان «بيت الارض»

وفى خلال ذلك ظهرت لها فى سنة ١٩٣٤ رواية قائمة بذاتها باسم « الأم » . كما نشرت لها قبل ذلك ترجمة لاشهر قصة صينية وهى قصة « شوى هوشان » وقد جعلت عنوانها بالانجليزية :

« كل الناس اخوة » . وفي سنة ١٩٣٦ نشرت لها روايتا «المنفى» و « الملك القاتل » وكانتا ترجمة لحياة أمها وأبيها . وفي سنة ١٩٣٨ كتبت لاول مرة عن الحياة الامريكية في رواية « القلب الفخور » ، وكانت الحلقة الاولى لسلسلة روايات عن النساء الامريكيات

وقد منحتها جامعة « ييل » في سنة ١٩٣٣ درجة الاستاذية الفخرية في الاداب . وفي السنة التالية انتقلت الى أمريكا حيث أقامت بها ومنحت ميدالية هويلز سنة ١٩٣٥ ، واختيرت عضوا في المعهد الوطني للفنون والاداب سنة ١٩٣٦ . ثم منحتها الاكاديمية السويدية جائزة نوبل للاداب سنة ١٩٣٨ « لوصفها الدقيق للحياة الصينية الريفية » . كما منحت درجة الدكتوراه الفخرية في الاداب من جامعة فرجينيا وجامعة سانت لورنس

وفي سنة ١٩٣٩ نشرت لها رواية « الوطني » . واعقبتها في سنة ١٩٤٠ بروايتها الثانية عن الحياة الامريكية واسمها «آلهة آخرون» ثم اثرت فيها الحرب فنشرت في سنة ١٩٤٢ رواية عن اهوالها باسم « بذرة الفول » . واخرجت تكملة لها في سنة ١٩٤٣ باسم «الوعد»

ومنذ سنوات صدرت لها رواية « رجال الله » وهي تمثل مشكلة العصر الحاضر ، وهي الصراع المستمر بين الايمان والقوة .. وقد ألقت بيرل بك كثيرا من المحاضرات ، طبع بعضها في ثلاثة مجلدات، كما طبع بعد ذلك مجلدان شملا قصصا صغيرة كتبتها . واربعة كتب الفتها خصيصا للاطفال . وقد اسست « جمعية الشرق والغرب » وتولت رياستها ، وغايتها التقريب بين الشرقيين والغربيين .. ..

شخصيات الرواية

الجنرال واي	General Wu	: جنرال صيني عجوز عاصر عهد الملكية الصينية
المستر واو	Mr. Wu	: ابن الجنرال واي ، ومدير بنك الصين
اي ـ وان	I-Wan	ابن المستر واو ، شاب جامعي مثقف
اي ـ كو	I-Ko	الابن الاكبر للمستر واو، شاب مدلل
بيوني	Peony	: فتاة حسناء تعيش جارية في قصر المستر واو
الجنرال سيكي	General Seki	: قائد ياباني خطير الشأن
اين ـ لان	En-Lan	: شاب جامعي يتزعم جمعية ثورية سرية
بنج ـ ليو	Ping-Liw	: شاب جامعي وعضو بالجمعية السرية
المستر موراكي	Mr. Muraki	: تاجر ياباني عجوز واسع الثراء
بونجي	Bunizi	: ابن المستر موراكي الاصغر
اكيو	Akio	: الابن الاوسط للمستر موراكي
سيو	Siow	: الابن الاكبر للمستر موراكي
تاما	Tama	: الابنة الوحيدة للمستر موراكي
الكابتين ماجورك	Captain Macjork	: طيار امريكي شاب
الجنرال شيانج ـ كاي ـ تشيك	General Chiang Cai-Shek	: زعيم الصين الوطنية

الفصل الأول

في القصر الكبير

عندما فتح « آي ــ وان » عينيه على الحياة ، وجد نفسه يعـ[illegible] مع شقيقه الاكبر الوحيد « آي ــ كو » في قصر منيف على الـ الاوروبي بالحي الافرنجي في شنغهاي . وفي ذلك القصر الـ المحاط بالحدائق الغناء ، والجداول الرقراقة ، والبرك الصنا والجبلايات الانيقة . في ذلك القصر الكبير الذي تحيط به وبحدائقه هذه الاسوار العالية المنيعة ، نشأ « آي ــ وان » مع اخيه الاكبر هذا الوحيد « آي ــ كو » مع والديهما ، وجديهما لوالدهما ، وبين حشد من الخدم والعبيد والجواري

وكان والده المستر « واو » من اغنى اغنياء مدينة شنغهاي ، وواحد من اكبر رجال المال والاعمال فيها .. اذ ان فروع بنكه الكبير ، الذي ورثه عن أبيه العجوز الجنرال واي ، كانت تمتد في معظم البلاد الصينية ، كما كانت ثروته الطائلة تتغلغل في معظم الصناعات القائمة في ذلك الحين ، اي في العام الخامس عشر من قيام اول جمهورية صينية بزعامة «صن ــ يات ــ صن» بعد سقوط امبراطورية مانشو . وفي هذا العام كان بطلنا الشاب «آي ــ وان» قد بلغ العشرين من عمره ، بينما كان أخوه « آي ــ كو » قد بلغ الثامنة والعشرين . ولم يكن ثمة ما يزعج الاخوين في الحياة الا اختلاف طبائعهما اختلافا باعد بينهما ، حتى أصبح كل منهما يكاد يعيش في عزلة عن الاخر رغم اقامتهما الدائمة في قصر الاسرة !

كان « آي ــ وان » منذ طفولته وادعا ، متزنا ، سمح الوجه ، راضي النفس ، مطيعا لوالديه وجديه .. بينما كان اخوه مدللا ، عنيفا ، لا يرضيه شيء ، ولا يرضى عن شيء !

الا ان حياة « آي ــ وان » كانت تنطوي على حادث وقع عرضا .. ولكنه كان ، كما يقال ، حجر الزاوية في حياته كلها ، فبينما كان ذات يوم يقرأ كتابا في فناء المدرسة ، اذا برجال الشرطة يقتحمون المدرسة ، ويقبضون على بعض الطلبة ، ومن بينهم « آي ــ وان » حين ضبط متلبسا بقراءة ذلك الكتاب الذي كان عن حياة كارل ماركس

ولكن بمجرد ان عرف مدير السجن في مساء اليوم نفسه ان « آي ــ وان » هو ابن المستر « واو » صاحب بنك الصين الكبير ، بادر الى الاعتذار اليه ، وكاد ان يقبل يديه حتى لا يذكر هذا « الخطأ » غير المقصود لابيه ، ووعده « آي ــ وان » بذلك ، بشرط أن يفرج عن شاب كان معه في نفس الزنزانة ، وكان يبدو من ملابسه انه طالب بالجامعة

وبعد تردد طويل ، وافق مدير السجن على اطلاق سراح ذلك الطالب الجامعي الذي كان يدعى « اين ــ لان » وخرج الشابان الى الطريق حيث أشار « آي ــ وان » الى احدى المركبات .. ولما استقلاها ، قال « اين ــ لان » :

ــ لماذا اصررت على طلب الافراج عني ؟

ــ لاني رايتك تختلف عن الاخرين ، وملابسك تنم على انك طالب بالجامعة ..

ــ اجل .. شكرا ..

ــ كم مضى عليك في السجن ؟

ــ اكثر من سبعين يوما ..

ــ لماذا ؟

ــ ربما اخبرتك ذات يوم .. الى اين الان ؟

ــ الى قصر ابي ..

فلوى « اين ــ لان » شفتيه ، وقال :

ــ لا استطيع ان اذهب معك

ــ لماذا ؟ ..

ــ لاني ثوري حقا ..

ونظر « آي ــ وان » الى الشاب الذي كان يبتسم بطريقة غامضة ، ثم قال :

— هل تعرف اننى كنت اتمنى أن اتعرف على ثورى حقيقى ؟!
— ان أمثالى كثيرون فى الجامعة ..

وقبل ان يرد « آى — وان » وثب الشاب من المركبة ، واختلط بالمارة فى الشارع .. ولكنه حرص ، قبل ان يختفى ، على ان يلتفت الى « آى — وان » ويبتسم له ، ويرفع يده اليه محييا ..

وعاد « آى — وان » الى قصر والده ، وفتح باب الحديقة الصغير بمفتاحه الخاص ، ودخل الى غرفته دون أن يشعر به أحد ، لانه تعود ان يعود فى ساعة متأخرة كل ليلة دون أن يسأله احد اين كان ، أو لماذا عاد متأخرا ، وبعد ان ارتدى ملابسه فى الصباح ، اقبلت الفتاة الحسناء « بيونى » — وكانت جارية اشتراها والداه منذ طفولتها — تحمل ادوات الشاى وطعام الافطار. ولما رأته قد استكمل ارتداء ملابسه ، قالت له معتذرة :

— يبدو انى تأخرت عليك هذا الصباح ..
— لا يهم .. لانى لن اذهب الى المدرسة

فوضعت صحفة الشاى الفضية ، ونظرت اليه فى دهشة ، وقالت :

— لماذا ؟ ..
— لانى سألتحق بالجامعة ..
— الجامعة ؟ انها لابناء العامة .. وانت من الطبقة الخاصة ، فهل تظن أن اباك وجدك سيوافقان على هذا ؟
— اذا لم يوافقا فسوف أضرب عن الطعام ، كما يفعل اخى « آى — كو » حتى ينال ما يريد ..!

فالتمعت فى عينى « بيونى » نظرة ماكرة ، وقالت :

— وطبعا سوف احمل اليك الطعام سرا أثناء الاضراب !!
— أيتها الخبيثة !!

وظفر « آى — وان » بما أراد .. واضطر والداه الى الموافقة على الحاقه بالجامعة الاهلية ، ولكنهما حرصا فى الوقت نفسه على أن تكون ملابسه الجامعية من أفخر الانواع ..

ومرت سنتان ، واقبل العام الخامس عشر من قيام الجمهورية الصينية ، واصبح « آى — وان » عضوا فى احدى الجمعيات الثورية الكثيرة التى كانت منتشرة فى جميع انحاء البلاد يومذاك .

ولم يكن احد من أهله يعرف شيئا عن نشاطه الثورى هذا ، ومن ثم كان يعيش حياتين : حياة الطالب الثورى فى الجامعة .. الطالب الذى يحلم بقيام جمهورية جديدة بدلا من جمهورية « صن — يات — صن » والذى يتمنى أن يرى زعيم الثورة الجديد « شيانج — كاى — تشيك » فى منصب الحكم ، ثم حياة ابن مليونير فى قصر فاخر تحيط به الحدائق الغناء والاسوار العالية !

وفى ذات يوم ، عرج — اثناء عودته من الجامعة الى قصر ابيه — على متجر للحلوى بالقرب من القصر ليتناول شيئا منه . وفيما هو يغادره ، سمع شخصا يناديه باسمه ، فالتفت ليرى زميله « بنج — ليو » وكان زميلا فى الجمعية الثورية ، ولكن لم تكن له اهمية خاصة .. وكان ابن تاجر صغير فقير بالمدينة ، تنم ملامحه — ملامح بنج — ليو — عن الدناءة والخبث والحقد الطبيعى ، كما كانت الرائحة الكريهة تفوح من فمه المفتوح دائما . ولم يكن ثمة أحد فى محيط الجامعة ، أو بين اعضاء الجمعية السرية ، يميل الى هذا الشاب او يحب مصاحبته

ولم يسع « آى — وان » الا ان يمضى الى زميله هذا مرغما ، وان يبتسم له ويتبادل معه الحديث .. ولكنه كان فى الوقت نفسه يكره أن يعرف هذا الزميل الثورى أنه — أى « آى — وان » يعيش فى ذلك القصر الفاخر القريب . ولكن « بنج — ليو » سار بجانبه حتى وصلا الى بوابة القصر ، وهناك فتح عينيه فى دهشة وقال لـ « آى — وان » :

— هل هذا قصر ابيك ؟

فاومأ « آى — وان » براسه ، ثم اختلس نظرات سريعة الى نوافذ القصر ، وهو يخشى أن يراه احد واقفا مع ذلك الشاب الذى تنم ملابسه الرثة عن الفقر المدقع .. وتنهد اخيرا حين لم يجد احدا مطلا من نوافذ القصر ، ثم قال لـ « بنج — ليو » بسرعة :

— أرجو أن نلتقى غدا ..

ولكن « بنج — ليو » تلكأ ، وقال وهو يتطلع الى جوانب القصر :

— انه قصر رائع يا « آى — وان »
— أجل .. ولكننى لم أشيده بنفسى . لقد نشأت فوجدت أبى

قد شيده على هذا الطراز الاوروبى . وبطبيعة الحال ، لم يكن فى وسعى الا ان اعيش فيه

واردف بسرعة قائلا :

ـ طاب مساؤك يا « بنج ـ ليو »

ـ طاب مساؤك ..

وانطلق « آى ـ وان » مسرعا الى داخل القصر ، وعرج أولا ـ كالمعتاد ـ على غرفة جدته العجوز التى كانت تنتظر عودته من الجامعة ، فى مثل هذا الوقت من كل يوم ، لكى تحييه وتقبله وتطمئن عليه .. ثم مضى بعد ذلك الى غرفة جده الجنرال واى العجوز ، الذى تلقى علومه العسكرية فى ألمانيا أيام شبابه ، وان كان لم يشترك طيلة حياته فى معركة حربية واحدة . وبعد ان انصت بضع دقائق الى « ذكريات جده منذ خمسين عاما » عاد مسرعا الى غرفته .. وما كاد يخلع ملابسه الجامعية ، ويرتدى ملابس البيت الحريرية الفضفاضة الموشاة بالذهب والفضة ، حتى اقبلت عليه بيونى بوجهها الجميل ، وابتسامتها العذبة ، ورائحة الياسمين المنبعثة منها دائما ، وقالت له وهى تشير الى الزهور التى جمعتها فى مزهرة فضية بالقرب من النافذة :

ـ هل أعجبتك هذه الباقة يا « آى ـ وان » ؟

وكانت تناديه باسمه مجردا ، لانها نشأت معه منذ الطفولة ، واصبحت اقرب الى اخت له ، منها الى جارية ..

ونظر الى الزهور فى شىء من الاشمئزاز الخفى ، وتنهد قائلا :

ـ انها جميلة ، ولكن رائحتها نفاذة .. ان هذا القصر ملىء بالروائح والعطور على مختلف انواعها .. انه قصر عجيب .. مزعج ..

فابتسمت بيونى وقالت :

ـ المشكلة أن لك انفا شديد الحساسية للروائح العطرية .. حسنا ، ان والديك فى انتظارك

وقال فى نفسه : حسنا .. لم يبق غير الجلوس مع الوالدين لحظات ، ثم تصبح حرا تماما حتى صباح اليوم التالى ..

ومضى الى والديه اللذين كانا يجلسان ـ كالمعتاد دائما فى مثل

هذا الوقت من الاصيل ـ فى تلك القاعة الفاخرة الرحيبة التى تنم كل شىء فيها عن البذخ وحياة الترف . وكانت امه جالسة الى النافذة ـ كالمعتاد ـ تعمل فى قطعة تطريز ، وكان أبوه جالسا الى مكتبه الضخم ، وهو لا يزال مرتديا ملابسه الافرنجية التى يرتديها عادة اثناء عمله فى البنك

قال له الوالد :

ـ هل مررت على جديك ؟ لقد وصلت الان فقط من البنك ، ويجب ان اغير ملابسى حالا ..

ولكنه لم يتحرك من مكانه .. وعاد يقول :

ـ هل عاد اخوك من الخارج ؟

ـ لا يا ابى ..

ورفعت المسز واو عينيها الى ابنها ، وقالت باللغة الانجليزية :

ـ انك تبدو مرهقا يا « آى ـ وان »

وكانت المسز واو تتقن الحديث باللغتين الانجليزية والفرنسية ، وكان يحلو لها أن تتحدث باللغة الانجليزية مع ابنها وزوجها بين الحين والآخر . وكان « آى ـ وان » يبتهج لهذا ، حتى يتخلص من الحواشى الكثيرة التى تزخر بها اللغة الصينية

وعادت الأم تقول :

ـ يبدو انك تأخرت اليوم كثيرا فى المدرسة ..

ـ كان لدينا اجتماع بعد الانتهاء من الدراسة ..

فقال والده باللغة الصينية :

ـ وما نوع هذه الاجتماعات ؟

فرد « آى ـ وان » قائلا :

ـ اجتماعات سياسية ..

ـ حسنا ! كل ما أريده منك ألا تقع فى شبكة احدى هذه الجمعيات السرية التى يهوى الطلبة تكوينها .. ان الطلبة لا يستطيعون اطلاقا تغيير الحكام . ولكن فى استطاعة الحكام اعدام الطلبة ..!

وصاحت الأم :

ـ « آى ـ وان » .. عدنى ...

واستطرد الوالد فى حديثه ، دون أن يعير زوجته اهتماما :

— ان الحكومة — اية حكومة — لا تقبل أن يسيطر عليها جماعة من الطلبة والطالبات .. هـذا عدا انكم ، فى مثـل هـذه السن ، لا تعرفون الكثير عن حقائق الحياة الاجتماعية والسياسية والدولية فى بلادكم .. ان كل شاب منكم ثائر ساخط محب للانتقاد .. ولكن من منكم يعرف الحقائق عن شئون التجارة ، والمال ، والقروض الاجنبية و .. ؟

وهنا انفجر « آى — وان » قائلا :

— ولماذا نحتاج الى قروض اجنبية ؟!

وكان « آى — وان » متأثرا بسخط زميله « اين — لان » على التجاء حكومة « صن — يات — صن » الى القروض الأجنبية .. بل ان « اين — لان » عرض فى أحد الاجتماعات السرية أن يضحى بحياته ليقتل أى وزير يوقع على قرض أجنبى . وكانت تلك أول مرة يعرض فيها احد اعضاء الجمعية مثل هذا العرض فى سبيل أهدافها ..

وأجاب الوالد على ابنه قائلا :

— ان كل دولة فى العالم تحتاج الى قروض أجنبية لتنفيـذ مشروعاتها الاصلاحية الكبيرة ..

وكان المستر واو رجلا فى نحو الخمسين من عمره ، كبير الجسم ، مهيب المنظر ، مثقفا .. يميل الى تحالف دائم بين الصين واليابان ، منذ ان سمع مندوب اليابان يصيح فى محفل دولى بأن « آسيا يجب أن تكون للاسيويين »

وعاد الوالد يقول فى اشفاق وفهم :

— انك يا « آى — وان » تعرف كل الحقائق ، لانك تمر بهذه المرحلة الخيالية من العمر الذى يريد فيه الشاب ان يرى كل شىء حوله مثاليا . لقد كنت مثلك فى شبابى ، عضوا فى جمعية سرية .. وكل شاب لابد ان يمر بمرحلة كهذه ، ولكن حقائق الحياة لا تلبث ان تهبط به من سماء الخيال الى أرض الواقع ..

وغمغمت الام قائلة :

— ان « آى — كو » لا يمكن ان يكون على هذا النحو ..

فقال الوالد فى حدة :

— ان « آى — وان » اكثر شبها بى من « آى — كو »

وبعد برهة صمت قال « آى — وان » :

— هل تسمح لى يا أبى بالانصراف ؟

— بعد لحظة ..

وكان « آى — وان » يعلم أن أباه يحب — بين الحين والاخر — ان يبرز نفوذه ، ويكشف عن سيطرته على جميع الذين فى البيت بهذه الطريقة . ومن ثم ، قرر ان يبقى حتى يأذن له بالانصراف ..

وقال الوالد بعد فترة من السكون :

— اننى ، ووالدتك ، نفكر فى مستقبلك بعد أن بلغت هذه المرحلة من العمر ، وقد تحدثنا طويلا فى هذا الشأن .. وقررنا أن نترك لك ولاخيك « آى — كو » حرية اختيـار الزوجة التى يريدها كل منكما ...

فغمغم « آى — وان » قائلا :

— شكرا جزيلا ..

وكان « آى — وان » قد سبق ان عرف هـذه الحقيقة من اخيه « آى — كو » وكان اخوه يفتح قلبه لكل فتاة جميلة ، بحيث اصبح لا يدرى اية واحدة من صديقاته الكثيرات يتزوج !

وشعر « آى — وان » بالجميل لوالديه ، لانه كان يعرف ان كثيرا من زملائه فى الجامعة سوف يتزوجون ، رغمـا عنهم ، من فتيات اختارهن لهم أهلوهم . وكان هذا من المساوىء التى يريد الثوريون الجدد ان يقضوا عليها ، وان يتقرر حق كل انسـان فى الزواج بمن يشاء

وان « آى — وان » ليذكر ما حدث فى احد الاجتماعات ، عندما نهضت فتاة من أعضاء الجمعية ، وطالبت بحماس شديد أن يكون للمرأة حق اختيار شريك حياتها ، أو حقها فى عدم الزواج اطلاقا اذا شاءت ، وقد شعر « آى — وان » بالقلق عندئذ ، وهو يفكر فى حرج موقفه عندما يتقـدم للزواج من فتـاة معينة فيتلقى منهـا الرفض ..

ولما رأى « اين — لان » هذا القلق باديا على وجهه بعد الاجتماع ، قال له باسما :

— لا عليك ياصديقى مما سمعت .. ان هذه الفتاة ذات الصوت المرتفع والحماس الشديد عشيقتى ..

— عشيقتك ؟..

فمد « اين — لان » يده فى جيبه ، ثم تناول خطابا وقدمه الى « آى — وان » قائلا :

— هذه رسالة منها .. لقد اعربت فيها — كما ترى — عن رغبتها فى ان تكون عشيقة لى ..

— ولماذا لا تتزوجها ؟..

— لان والدى قد اختارا لى زوجة فى قريتى .. وهذا مايجعلنى اكره العودة الى القرية بعد انتهاء العام الدراسى !

— زوجة لك ؟..

وهكذا كان « آى — وان » يتلقى المفاجاة بعد الاخرى من صديقه وزميله « اين — لان » الذى انقذه من السجن ذات يوم ..

وأفاق من تفكيره على صوت والده ، وهو يقول مستطردا :

— ولكن قد آن لك أن تحدد المهنة التى ستتخذها .. هل تحب ان تعمل — مثل اخيك — معى فى البنك ؟

ولم يجبه «آى — وان» على الفور .. وانما راح يذكر ما قاله له « اين — لان » ذات يوم بعد احد الاجتماعات السرية :

— اننى أحمد الله لان ابى مزارع فقير فى قرية بأقصى الجنوب ، على حدود صحراء جوبا ، حيث لا يجد معظم الاهالى ما يقيم أودهم ، ولو كان أبى رجلا رأسماليا فى هذه الفترة التى نمر بها ، لتبرأت منه ..!

وقال « آى — وان » لنفسه : « اذا كان هذا راى « اين — لان » وهو بمثابة زعيم جمعيتنا ، فكيف اقبل العمل مع ابى فى البنك ؟ »

ولما طال به الصمت ، قال له الوالد بحنان :

— اننى لن اتعجلك أو ارغمك على شىء .. فأنت ابنى ، وعندما يستقر رايك على شىء معين ، تعال واخبرنى ..

فغمغم « آى — وان » قائلا :

— شكرا يا أبى ..

وقالت له امه :

— والى اين سوف تذهب بعد انصرافك من هنا ؟

— الى غرفتى لاستذكر دروسى ..

وغادر الغرفة ، واغلق الباب وراءه ..

وكان يعلم انه سوف يلتقى بأفراد الاسرة كلها بعد ساعتين ، عندما يهبطون الى قاعة الطعام الكبرى لتناول العشاء ، وتحلب لعاب « آى — وان » وهو يذكر أطايب الطعام الشهى الذى لو رآه « اين — لان » لظن انه أمام وليمة فاخرة ، بينما هو فى الواقع الطعام اليومى العادى فى القصر ..

وعاد الى غرفته ليكتب موضوعا انشائيا باللغة الانجليزية ، وكان قد اعتزم أن يبز بهذا الموضوع براعة « اين — لان » فى اللغة الانجليزية ، ولم يكن يريد ان يتفوق عليه رغبة فى التفوق .. وانما لكى يبين « لاين — لان » » انه شاب كفء ، لا يقل عنه براعة وذكاء !

الفصل الثانى

أشجان قلب

ظل « آى — وان » بعد ان فرغ من العشاء الشهى ، يعمل فى موضوع الانشاء الانجليزى حتى ساعة متأخرة من الليل ، وكان قد اختار لموضوعه حياة « صن — يات — صن » وبعد ان فرغ منه ، راح يعيد قراءته للمرة الثالثة ، وقد شعر بالرضا التام ، وكانت بيونى فى اللحظات الاخيرة ، قد فرغت بدورها من اعداد فراشه الحريرى الوثير للنوم ، ثم وقفت بجانبه وقد وضعت يدها المعطرة بشذى الياسمين على كتفه ، وخدها على شعره ، وتذكرها فجاة ، وهى واقفة بجانب ازهار الزنبق ، بعد ظهر اليوم نفسه .. واحس بشىء ما يصطرع فى اعماق نفسه ، ولكنه زم شفتيه ، ومال بعيدا عنها بعض الشىء ، وهو يغمغم قائلا فى ضيق :

— الى متى تستعملين هذا العطر القوى المزعج ؟

فقالت بدلال :

— الى الابد ، لانى احبه .. ولكن ، لا ينبغى ان تستمر فى الاستذكار ، اننا الآن فى ساعة متأخرة من الليل .. وقد آن لك ان تنام

— لا تتدخلى فيما لا يعنيك من اعمالى ..

فردت عليه قائلة ، وهى تداعب خده بأصابعها الناعمة :

— اذا كنت لم تفرغ بعد من اعمالك ، فانت اذن غبى ..!

ثم اردفت ، وهى تمسح على شعره برفق :

— وانا اعلم انك لست كذلك

واحس بقلبه يخفق فجاة ، مرة .. ثم مرتين ، وخامره شعور بالاضطراب ، لقد نشأ معها فى القصر يلعبان .. وكان يعرف — وهى

تعرف ايضا — انها جارية مشتراة ، ولكن جميع من فى القصر ، كانوا يحبونها ويعاملونها كواحدة من افراد الاسرة ، لاسيما بعد ان توفيت الاخت الوحيدة للشقيقين ، والواقع انه كان بين «آى — وان» وبيونى احساس اخوى مشترك على مر السنين ، ولكن «آى—وان» بدأ يشعر — بعد أن تجاوز سن المراهقة — باحساس آخر مختلف نحوها ، لقد أخذ يحس نحوها بشىء ، كان يثير فى اعماق نفسه شيئا يرضيه ويزعجه وينفره فى وقت واحد ، وكان هذا الاحساس يشتد ويعنف عندما تضع راسها على شعره ، ويدها على خده .. ولشد ما كان يخشى ان يمد ذراعه ذات ليلة ويطوقها ، ثم يضغط على شفتيها المتوردتين الناعمتين بشفتيه فى قبلة ، تغيبهما معا عن الوجود ..

انه لايريد ان يفعل هذا ، ولم يفعله يوما .. ولكنه يفكر فى هذا دائما ، ويشعر بالخجل من مجرد التفكير ، كان يرى ان كل مشاعره ، وخلجات قلبه ، ينبغى أن تتركز فى هدفه الاساسى لاصلاح شئون وطنه ، وان اى انحراف عن هذا الهدف — ولو بالشعور فقط — يعتبر خيانة للوطن ، وكان واثقا تماما انه لو لم يكن عضوا فى تلك الجمعية السرية ، لأرضى شعوره ذاك نحو بيونى ..

ولكنه — فى الوقت نفسه — لم يكن يريد ان يكون مثل اخيه « آى — كو » ، لقد اعتاد «آى — كو» أن يعابث بيونى وأن يلف ذراعه حول خصرها ، وكانت هى تتخلص منه ، كلما فعل هذا .. برفق حينا ، وبعنف احيانا !.. وقد حدث ذات مرة انها لم تستطع أن تتخلص منه الا بعد أن ادمت خديه بأظافرها الطويلة المدببة ، مما اضطر « آى — كو » الى الانزواء فى البيت بضعة ايام حتى التأمت جراحه . ذلك انه كان يخشى أن يخرج الى اصدقائه ، ويصبح موضع سخريتهم ، حين يرون آثار الخدوش على وجهه .. وهى آثار تنم عادة عن السبب الحقيقى لها ، وقد اثار ذلك الحادث بعض الاضطراب فى جو القصر ، وتحدثت المسز واى على انفراد مع بيونى ، وتحدث الجنرال العجوز مع « آى — كو » ، وجاءت بيونى اخيرا الى غرفة « آى — وان » حيث بكت كثيرا ، ولما سألها عن سر موقفها هذا العجيب من أخيه ، قالت :

— اننى اكره « آى ـ كو » ! لقد كان دائما شريرا قاسيا ..

ولم يسالها « آى ـ وان » كيف كان أخوه شريرا وقاسيا معها ؛ لانه لم يكن يريد ان يعرف .. وانما شعر بالحرارة تسرى فى دمائه يومذاك ، وهو يقول لها :

— اننى لن اكون فى يوم ما شريرا او قاسيا معك يا يونى ..

وقد بكت عندئذ قليلا ، ثم رفعت عينيها اليه ، واجابت قائلة :

— انك لا تستطيع ان تكون شريرا يا « آى ـ وان » حتى لو حاولت !

فاحس بالخجل .. وتراجع عنها قليلا ، مما جعلها تهمهم قائلة :

— انك لم تعد تحبنى بعد ان كبرت يا « آى ـ وان »

فقال بلهجة حاسمة :

— لا .. ان شعورى نحوك لم يتغير يابيونى

فقالت هامسة :

— ما اشد احساسى بالوحدة !

فطوى كراسة الانشاء بعنف ، ونهض قائلا :

— انصرفى يابيونى .. اننى لم اعد فى حاجة اليك بعد ان فرغت من اعداد الفراش ..!

وكان المعتاد ان تساعده فى خلع ملابسه الخارجية وارتداء ملابس النوم ، ثم اسدال الستائر على النوافذ بعد احكام غلقها ، ولـكن خوفه منها ـ او من شعوره الجديد الغريب نحوها ـ جعله فى الاشهر الاخيرة يصر على ان تترك النوافذ مفتوحة ، صيفا وشتاء .. فاذا ابت ان تنفذ رغبته ، نهض بعد انصرافها وفتح النوافذ بنفسه !

ولشد ما كان يعجب حين يراها لا تغضب من معاملته اياها على هذا النحو .. بل كان يرى العبث البرىء يطل من عينيها وهى تبتسم ، كلما اسرف هو فى التظاهر بالنفور منها ..

وفى هذه الليـلة ، قالت له ونظراتها العابثة تبتسـم فى وجهه المتجهم :

— لقد اصبحت كبيرا .. اصبحت الآن رجلا ، ولهذا لم تعـد تريدنى هنا يا « آى ـ وان » !.. اصبحت رجلا كبيرا مهيبا ..!!

فانقض عليها ودفع بها نحو البـاب ، بينما تشبثت هى بيـديه

وضحكاتها الناعمة تصافح اذنيه كنغمـات موسيقيـة مثيرة .. واستطاع اخيرا ان يدفعها خارج الباب رغم انها حاولت التشبث بيديه ..

وبعد ان اغلق الباب ، وادار المفتاح فى القفل من الداخل ، وقف وراءه يرهف السمع ، ولما لم يسمع شيئا ، ادار المفتـاح فى القفل وفتح الباب واطل براسه منه ، آه .. انها واقفة وراءه تضحك ! وانسحب بسرعة واغلق الباب ، ووقف فى سكون برهة ، انه لن يفتحه لها .. انها تريد هذا ، ولـكنه لن يفعل ، ومضى الى النافذة ، وفتح مصراعيها بقوة .. انها اذا كانت وراء الباب حتى الآن ، فسـوف تعلم انه فتح النافذة ، وانه سيأوى الى فراشه ، واحس بالرغبة فى العودة الى البـاب ليرى اذا كانت واقفة ام لا ، ولـكنها لو كانت واقفة ، فسوف تدخل هذه المرة رغما عنه ..!

وماذا بعد ؟..

لا .. انه كرس حياته لوطنه .. ثم انه لايريد أن يكون مثـل « آى ـ كو » !

واسدل الستائر ، ووثب الى فراشه ، وسحب الاغطية الحريرية عليه ، واستغرق فى النوم

كانت الجمعية السرية بالجامعة ، تعقد جلساتها فى فصـل اللغـة الانجليزية فى الاوقات التى لا يكون فيها طلبـة الفصـل مجتمعين للدراسة ، وكان فصل اللغة الانجليزية يقع فى مبنى صغير منعزل عن بقية مبانى الـكليات الاخرى ، وكان الاعضاء يكلفون زميلهم « بنج ـ ليو » بالوقوف عند باب المبنى للحراسة والمراقبة ، فاذا شـاهد أحدا مقبلا ، هتف بكلمة معينة يسمعها الجميـع .. فيتفرقوا توا مسرعين الى أماكنهم المعتادة ، وكان الاختيار قد وقع على « بنج ـ ليو » للمراقبة ، لان وجهه الدميم كان ينم عن البلاهة الظـاهرية التى تغلف عقلية ماكرة !

وكان الاعضاء قد أطلقوا على جمعيتهم اسم « جمعية الوطنيين الاحرار » وذلك لان الحكومة كانت تعدم كل من ينضم الى جمعيـة ذات مبادىء شيوعية ، ولكن لم يكن فى وسعها أن تعدم أعضاء جمعية

تسمى « جمعية الوطنيين الاحرار » . وقد قال « اين – لان » ذات يوم « لآى – وان » ، وهو يرسم على وجهه ابتسامة عريضة :

– انهم لا يجرءون على اعدام الوطنيين، ولكن عندما يحين الوقت المناسب سوف نجرؤ نحن على اعدام خصومنا جميعا !

وفى مكان الاجتماع ؛ كان «آى – وان» يعرف جميع اعضاء الجمعية الثلاثة والعشرين الذين كان بينهم تسع فتيات .. كان يعرفهم بوجوههم واسمائهم فقط . أما عن ظروف حياة كل منهم . فكان لا يكاد يعرف شيئا فيما عدا « اين – لان » ،و« بنج – ليو » .. لم يكن يعرف ان كان الباقون من أسرات غنية أو فقيرة ، من طبقة خاصة أو عامة . وكان عدد الاعضاء ، عندما انضم « آى – وان » للجمعية ، لا يزيد عن احد عشر عضوا ، وظل هذا العدد يزداد على مر الشهور ، كلما انضم عضو جديد يزكيه عضو قديم ، وكان « اين – لان » هو الذى زكاه عند انضمامه الى الجمعية

وكان قد التقى بـ « اين – لان » عند التحاقه بالجامعة مباشرة، وحدثه « اين – لان » عن الجمعية ، واعرب عن استعداده لتزكيته للانضمام اليها اذا شاء ، وقد قال له « آى – وان » عندئذ :

– كيف تزكينى وانت لا تكاد تعرف عنى الا اننى ابن واحد من اكبر الاثرياء فى المدينة ؟

وعندئذ اجاب « اين – لان » قائلا :

– اننى أعرفك ، واعرف ماذا فعلت من اجلى حين اخرجتنى من السجن

– الا يهمك ابن من انا ؟

– وماذا يهمنى من امر ابيك ، ما دمت اعرف انك انسان يمكن الاعتماد عليه فى الخطير من الامور ؟

وحرص « آى – وان » بعد انضمامه للجمعية على أن يبدو مشعث الشعر ، بالى الثياب .. وكان يبتهج حين يرى مزقا فى ثوبه ، أو زرا ناقصا ، بل لقد أسرف فى هذا وخصص حلة قديمة بالية للذهاب الى الجامعة بها . وكان يخلعها بمجرد عودته ، ويرتدى غيرها قبل ان يقوم بجولته التقليدية على أفراد الاسرة الكبار !

وقد سأل « اين – لان » ذات يوم قائلا :

– انك لم تخبرنى بالسبب الذى دفع بك الى السجن يا « اين – لان » ؟ . .

وصمت « اين – لان » برهة ، ثم قال :

– سوف أكتب لك الاسباب فى مجموعة من الصفحات . .

وكان المعروف عن « اين – لان » انه اقدر فى التعبير عن ذات نفسه بالكتابة منه بالحديث ، وهكذا عاد بعد أيام قليلة بمجموعة من الاوراق المكتوبة التى دفع بها الى « آى – وان » قائلا :

– اقرأ هذه .. ثم احرقها !

وفى تلك الليلة ، انفرد « آى – وان » فى غرفته ، وراح يقرأ الصفحات الكثيرة التى أفرغ فيها « اين – لان » كل خلجة من خلجات نفسه . .

كانت الكلمات تنبض أمام عينى «آى – وان» بالصدق والصراحة والاخلاص ، وكان قلبه ينتفض بالانفعال ، وهو يقرأ عن كيف عاش « اين – لان » طفولته البائسة فى قرية نائية على حدود صحراء وتلال جوبا فى جنوبى الصين ، وكيف كان أهل القرية البؤساء ينوءون تحت عبء الفقر والضرائب والظلم الاجتماعى ، وكيف كانت المجاعات تعصف بهم فيضطرون الى اكل أوراق الشجر والحشرات والحيوانات، وكيف قرر أبواه أن يبعثا به الى شنغهاى ليتم تعليمه العالى ، ثم يعود الى القرية رجلا عظيما .. وكيف تعهد سكان القرية جميعهم على أن يعاونوا أبويه لتحقيق هذا الامل الكبير ، على اعتبار انه أول فرد فى القرية يتم تعليمه العالى ، وكيف سافر الى شنغهاى والتحق بعمل شاق مرهق لكى يقيم أوده ويدفع نفقات التعليم ، وكيف تفوق على اقرانه فى الكتابة باللغة الانجليزية ، مما جعل المس متلاند – أستاذة اللغة الانجليزية – ترعاه وتتعهده ، ثم تطلب منه أن يكتب مقالا يدخل به مسابقة الشباب الجامعى ، وكيف كتب المقال بعصارة دمه ومشاعره ، فذكر فيه آماله كشاب وطنى ، وآلامه وهو يرى بلاده تنوء تحت نير الفقر والظلم الاجتماعى ، وكيف ان الحكومة غضبت عليه حين نشر المقال فى الصحيفة الانجليزية بشنغهاى – بعد أن نال الجائزة الاولى – وكيف اعتبرت الحكومة ان المقال عرض الشعب الصينى لسخرية الاجانب ، فقبض عليه فى الجامعة ، واودع السجن

حيث ظل ثلاثة وسبعين يوما ، وهو يتوقع الاعدام فى كل يوم ، ولكن زنزانة السجن كانت تمتلىء فى الليل ، ثم تخلو فى الصباح ، دون ان يأتى عليه الدور حتى ايقن اخيرا ان السلطات المسئولة قد نسيت أمره تماما ، ثم كيف رأى «آى ـ وان» وهو يدخل الزنزانة ذات يوم بملابسه الحريرية الفاخرة مقبوضا عليه ، وكيف تم الافراج عنه على يديه !

وبعد ان فرغ «آى ـ وان» من قراءة الصفحات ، احس بالدموع تطفر من قلبه الى عينيه ، وعز عليه أن يحرقها .. فنهض وطواها بعناية ووضعها فى درج تحت مجموعة من الكتب القديمة التى كان جده قد اعطاها له ، والتى لم يجد الوقت الكافى ليقرا منها شيئا ..

وظل طيلة تلك الليلة ، وهو يتقلب فى فراشه مسهدا يفكر فيما قرأ .. لقد أعطاه « اين ـ لان » قطعة من نفسه ! فماذا يمكن ان يعطيه هو نظيرا لها ؟ .. واخيرا قرر ان يكون أخا له بالدماء ..

ولما رآه فى اليوم التالى ، لم يحدثه عما قرأ ، وانما وجد « اين ـ لان » ينظر اليه فى حياء وخجل .. ومن ثم قال له :

ـ هل تقبل أن تكون أخى بالدم ؟

وهنا زالت سمات الحياء والخجل من عينى «اين ـ لان » وقال:

ـ نعم اقبل ...

وذهبا معا الى غرفة « اين ـ لان » ، وبعد أن قاما بالمراسم التقليدية القديمة ، جرح كل منهما ذراعه .. ومزجا دماءهما بعضها ببعض ، وتصافحا وهما يقسمان على الولاء والاخاء الابدى ..

خطر هذا كله بذهن « آى ـ وان » عندما وقف « اين ـ لان » فى ذلك الاجتماع الذى عقد بالفصل المخصص للغة الانجليزية ، وراح يقول :

ـ لقد صدرت الينا الاوامر بتنظيم الحركة الشعبية بين عمال مصانع الحرير فى جنوبى المدينة ، والاوامر تقول ان جمعيتنا هذه ستكون مسئولة عن تنظيم عمال هذه المصانع ..

ثم اردف قائلا ، وهو يشير الى « آى ـ وان » :

ـ عليك ان تتولى شئون احد هذه المصانع من هنا يا «آى ـ وان» لان لديك القدرة المالية التى تمكنك من الانتقال اليها أو منها .. وهى

مصانع تاتوان ، اما الذين سيذهبون على اقدامهم ، فسيكلفون بمصانع الدرب

وراح بعد ذلك ، يشرح مهمة كل واحد من افراد الجمعية ، ولما اوشك ان ينتهى .. اذا بالرقيب « بنج ـ ليو » يندفع الى مكان الاجتماع هاتفا :

ـ تفرقوا بسرعة .. فانى أرى اشخاصا مندفعين نحونا ..!

وتفرق الجميع بسرعة خاطفة .. ولكن « آى ـ وان » لاحظ أن « بنج ـ ليو » ظل واقفا فى مكانه ، وكأنما ينتظر شخصا معينا ، واخيرا تحول من مكانه ، وانضم اليهم باسما يقول انه اخطأ فى تحذيره ، وان الاشخاص الذين حسبهم مقبلين نحو قاعة الاجتماع ، لم يكونوا غير جماعة من النجارين الذين جاءوا لاصلاح بعض الابواب ..

واستأنف الاعضاء اجتماعهم ، وقد نسوا امر « بنج ـ ليو » ، لانه كان من الشخصيات التى لا تعلق بذاكرة احد

الفصل الثالث

حياة أخرى

وبدأ « آى – وان » حياة اخرى – فى الواقع – منذ ذلك اليوم ..

كان يذهب الى مصانع الحرير فى اقصى الجنوب من المدينة – سيرا على قدميه – حتى لا يبدو مترفا أمام العمال . وكان دائما يقول لنفسه : انه كلما بدا فقيرا أمام اخوانه وزملائه ، كان ذلك افضل واجدى . وكان يذهب اليهم فى ملابس العمال، ويختلط بهم، ويتحدث معهم ، ويعقد أواصر المعرفة الوطيدة بينهم ، ويتردد على اكواخهم القائمة فى مناطق نائية عن المصانع ، ويتحمل الروائح الكريهة المنبعثة من هذه الاكواخ ، ومن المصانع على حد سواء .. لان مصانع الحرير كانت تخمر شرانق ديدان القز ، مما يجعل روائح النتن تملأ الجو ليلا ونهارا !

وقد حدث فى اليوم الاول ، ان رأى النساء والفتيات يعدن الى الاكواخ من المصنع ، وقد بدت أيديهن حمراء دامية متورمة ، ذات منظر يثير فى النفس التقزز والنفور . فلما سأل عن سبب هذا ، قيل له أن على هؤلاء النساء والفتيات ان يلتقطن شرانق الديدان من الماء المغلى ليبحثن عن أول الخيط الحريرى ، وكانت طبيعة العمل تحتم عليهن ان يفعلن هذا قبل ان يبرد الماء ..

ولما عاد الى قصر ابيه فى تلك الليلة ، قال لبيونى :

– دعينى أشم رائحة يديك ..

فمسحت بكفيها العاطرتين الناعمتين على خديه وعينيه ، وعندئذ قال مغمغما :

– أن لهما رائحة زكية حلوة ..

فوضعت كفها اليمنى على فمه ، وبقيا هكذا برهة بلا حديث أو

حركة ، وكان هو مستمتعا بملامسة البشرة العاطرة الناعمة ، واخيرا همهم قائلا :

– انها كالزهرة الزكية الشذى ...

ورغم هذا ، كان يدرك فى اعماق نفسه انه لا يحب بيونى ... وانه لم يحبها يوما ، وانه لن يحبها أبدا .. رغم تلك الاحساسات العجيبة التى تشيع الحرارة فى دمائه بين الحين والاخر ، وتحاول ان تدفعه الى ان يأخذها بين ذراعيه . ولكن هذا الشعور بعدم الحب لم يكن يمنعه من الاحساس بأنها فتاة .. وفتاة جميلة ، عاطرة اليدين ، ناعمة البشرة

وفجأة افاق لنفسه ، وقد تذكر انه ليس ثمة مجال فى قلبه لاية فتاة ، سواء لبيونى أو لغيرها ، وان مشاعره كلها ينبغى ان تتركز لخدمة وطنه

ولكن كيف يمكن لبيونى ان تفهم هذه الحقيقة ؟ كيف يمكن لها ان تدرك أن موقفه السلبى من عواطفها الجامحة نحوه ، يرجع الى تكريس حياته بكل ما فيها من مشاعر صادقة لخدمة وطنه ؟

ومالت اليه برفق ، وسمح هو لها بذلك .. وشعر بقلبها الصغير يخفق على كتفه أثناء جلوسه الى مكتبه يستذكر دروسه . ولكنه لم يلبس ان نسيها ، ونسى كل شىء غيرها ، فيما عدا أولئك العمال الذين عهد اليه بنشر روح المقاومة ضد الظلم فى نفوسهم .. ان هؤلاء العمال كانوا يمثلون فى نظره الواقع بكل ما فيه من آلام ومرارة .. اما بيونى – بيدها العاطرة – فلأى شىء كانت ترمز ؟!

وسألته بيونى قائلة :

– الن تأوى الى فراشك الان ؟

وكانت قد اعدت له صحفة الشاى بأوانيها الفضية المذهبة ، واوانيها الممتلئة بالحلوى والرقائق ، لكى يتناول منها ما يشاء قبل ان ينام

– لا .. ليس الآن

فقالت معابثة :

– لماذا تجهد نفسك هكذا ؟ انك فى غير حاجة الى العمل ، لانك لست ابن رجل فقير !

فهز كتفيه ، ودس .

ـ انني اسهر لانى لا استطيع ان انام مبكرا ، وعدم استطاعتى النوم مبكرا يرجع الى انى لست ابن رجل فقير ..

وفجاة اردف قائلا :

ـ انصرفى الان ..

وفى هذه المرة ، انصرفت فورا دون ان تتمادى فى معابثته ، او تتلكأ لمداعبته . ونهض هو ، ووقف الى النافذة ، وراح يتطلع فى سكون الليل الى حديقة القصر الواسعة التى كانت جداولها تتألق فى ضوء القمر ، والى معابرها الجميلة الانيقة القائمة فوق الجداول ، والى طرقاتها المفروشة بالحصباء الملونة ، والى خمائلها التى تظلل مغانى للجلوس والسمر ، والى القوارب الصغيرة ، الشراعية والبخارية ، الراسية فى بحيرتها الصناعية الواسعة

وتنهد اخيرا وقال وهو ينظر الى الاسوار العالية المحيطة بهذا كله :

ـ هذه هى حياتى .. حياة مغلقة ، داخل قصر تحيط به الاسوار العالية !

واستمر فى اتصالاته بعمال مصانع الحرير فى جنوبى المدينة . وكانت المجاعات ، والحروب الاهلية ، ومواسم الجفاف والقحط ، قد دفعت بالملايين من سكان المناطق الداخلية الى الهجرة نحو المدن الساحلية ، لا سيما شنغهاى ، وكانت كثرتهم ، وتسابقهم الى الحصول على الاعمال بأى أجر ، قد جعل أجورهم تهبط الى أقل مستوى ممكن للاجور

وبين هؤلاء العمال ، كان « آى ـ وان » يحاول ان ينشر روح المقاومة على الظلم ، والكفاح فى سبيل ابسط الحقوق الانسانية . وقد استطاع ان يغرى ثمانية عشر شابا منهم بالاقبال على التمرينات العسكرية وكان هو قد تلقى علومه العسكرية داخل حديقة قصر أبيه ، على يد ضابط المانى متقاعد . وقد علمه ذلك الضابط الكثير من الفنون العسكرية الالمانية حتى « مشية الاوزة » التى اشتهر بها الشباب الالمانى فى جميع أنحاء العالم . وكان يقول

لهم اثناء التدريبات ، كلما راى رءوسهم منكسة :

ـ ارفعوا رءوسكم .. فسوف يأتى اليوم الذى تحاربون فيه من اجل حياتكم

وقد حدث فى احد الاجتماعات العامة خارج المدينة ، ان قال رجل كهل من العمال لـ « آى ـ وان » بعد ان فرغ هذا من حديثه الطويل :

ـ لقد فهمنا الان اننا كالمستجيرين من الرمضاء بالنار !

وكان « آى ـ وان » فى ذلك الاجتماع يحدثهم عن وجوب التخلص من روابط الاسرة ، والتحلل من وشائج الدم ، وان المواطن المخلص يجب ان يكرس حياته لخدمة المجتمع حتى لو ضحى فى هذا السبيل بأبنائه وآبائه

ولما سمع « آى ـ وان » عبارة ذلك العامل الكهل ، قرر ان يركز نشاطه وجهده بين العمال الشبان

وكان ـ بناء على نصائح « اين ـ لان » ـ يحمل الى هؤلاء العمال الحلوى والفطائر ، كلما اراد ان يقنعهم بآراء جديدة .. ذلك انه اكتشف انهم يحسنون الاصغاء اليه ، كلما امتلأت بطونهم بأطايب الطعام ..

الا انه كان يقف ـ فى أحيان كثيرة ـ مدهوشا أمام قوة حجتهم .. فمثلا حاول ذات يوم ان يثيرهم بالغضب ـ عندما علم بتفاهة الاجور التى يتقاضونها ـ فهتف فى غضبة قائلا :

ـ ان ذلك كله سوف يتغير ..

وهنا انبرى له احدهم ، وقال :

ـ كيف يمكن هذا ، ما دام اصحاب المصانع يجدون عمالا مستعدين للعمل بأقل من أجورنا الحالية ؟

وقد صاح بهم فى مرة أخرى :

ـ ان كل واحد منكم لا يقل عن أى انسان آخر ، مهما يكن شأنه ، وان من حقكم ان تكونوا كغيركم من الناس

فضحك كثير منهم عندئذ ، وقالوا له :

ـ انك تقول هذا لانك انسان لطيف .. اما الحقيقة ، فهى انه لابد ان يختلف الناس بعضهم عن بعض ، كما تختلف حظوظ بعضهم

عن حظوظ البعض الاخر

وفى مرة ثالثة قال لهم :

ــ سوف نرغم الاغنياء على ان يفتحوا لكم ابواب قصورهم !

وكان فى قرارة نفسه يقصد قصر ابيه .. وقد رد احدهم عليه قائلا فى سخرية :

ــ وهل ثمة قصور الاغنياء تكفى لايواء الملايين منا ؟

ورد آخر :

ــ ومتى سيكون هذا ؟

ــ قريبا .. قريبا جدا ..

ولم يكن « آى ــ وان » يعرف متى سيكون هذا ، بل لم يكن يعرف الا انهعضو فى جمعية من عشرات الجمعيات المماثلة التى تحركها اياد خفية لا يعلم عنها شيئا . وانما كان يتلقى تعليماتهمن « اين ــ لان » . اما من اين يتلقى « اين ــ لان » التعليمات فهذا ما لم يكن يعرفه !

وقد ذهب فى احدى ليالى الشتاء الباردة ــ بعد ان فرغ من تدريبات كتيبته العمالية ــ الى الغرفة الصغيرة التى يسكنها « اين ــ لان » ليتبادل معه الحديث . وقد وجده يقرا ورقة مليئةبالكلمات الصغيرة الدقيقة ، فلما شاهده « اين ــ لان » ، طلب منه ان يجلس ريثما يفرغ من قراءة الورقة ..

وبعد ان فرغ من القراءة ، احرق الورقة ، ثم قال « لآى ــ وان »

ــ لماذا تبدو عليك سمات الكآبة يا صديقى ؟

فقال « آى ــ وان » :

ــ هل يمكن ان نتجول قليلا فى الخارج ؟

وادرك « اين ــ لان » انه يريد ان يتحدث معه حديثا سياسيا ، وكان الراى قد استقر بين اعضاء الجمعية على الا يتبادلوا الاحاديث السياسية بين الجدران الا فى الاجتماعات الخاصة ..

ولما وصلا الى شارع مظلم هادىء ، قال « آى ــ وان » :

ــ متى سيكون اليوم المنتظر ؟

ــ لن يتجاوز آخر الشهر الثالث من بدء العام الجديد .. ان الورقة التى كنت اقراها فى غرفتى قبل ان احرقها كانت تحمل

انباء جديدة عن انتصارات «شيانج ــ كاى ــ تشيك» ، وعن اليوم المنتظر

وبعد ان سارا برهة فى صمت ، قال « آى ــ وان » :

ــ كيف أستطيع ان اقنع رجالى بأن كلا منهم انسان له قيمته؟ انهم يؤمنون بأن هذا هو نصيبهم من الدنيا ، وانه لا يجوز معاندة الاقدار والتمرد عليها ، وبانه ما دامت الاقدار قد حكمت عليهم بالفقر ، فلابد لهم ان يستسلموا ، بلاننى لم استطع حتى أن اجعلهم يكرهون الاغنياء . انهم يقولون لى ببساطة : « هكذا شاءت الاقدار ان تجعل الناس فى هذه الحياة الدنيا ، بعضهم اغنياء ، وبعضهم فقراء » ..

وانتظر « آى ــ وان » ان يسمع ضحكة « اين ــ لان » ولكن هذا نال فى حزم وبكلمات حادة :

ــ هذه هى المشكلة المعقدة يا « آى ــ وان » . ان الاغنياء ليسوا مشكلة فى نظرنا لان فى الامكان القضاء عليهم ونهب ممتلكاتهم . ولكن المصيبة الكبرى هى اولئك الفقراء الذين ولدوا وعاشوا فقراء، ليس فى مقدورهم ان يأملوا فى حياة افضل .. ان عليك ان تضع بين ايديهم شيئا « طعاما ، مالا ، عقارا » حتى تستطيع ان تقنعهم بان فى الامكان ان يكون لديهم شىء . وعيبك يا « آى ــ وان » ،أنك انسان مثالى . ولولا هذا لادركت ان الفقراء ليسوا خيرا من الاغنياء .. . .

فقال « آى ــ وان » مدهوشا :

ــ اذن لماذا نكافح من اجلهم ؟

فضحك « اين ــ لان » عندئذ ، وقال :

ــ سوف اخبرك فيما بعد .. اما الان فهل تظن ان اى واحد منهم لو كان يمتلك شيئا له قيمته ، يرضى أن يشرك فيه احدا آخر بلا مقابل ؟ طبعا لا .. بل هناك ما هو اسوا من هذا . ان الفقير المعدم اشد ضراوة من الغنى ! لان الغنى لم يكن فى يوم من الايام اقرب الى الحيوان منه الى الانسان . وعليك من ثم أن تعد نفسك لاشياء كثيرة رهيبة يا « آى ــ وان » عندما يحل اليوم المنتظر

فهمس « آى ــ وان » قائلا :

ــ لماذا ؟

ــ لأن هؤلاء الذين نكافح من أجلهم سيكونون اشد وحشية من الوحوش البرية ، عندما نقول لهم ان المدينة قد اصبحت ملكا لهم .. انهم لن يقتلوا الاغنياء فقط ، وانما سيقتلون بعضهم بعضا ايضا ، بل ان الكثير جدا مما يريدون اخذه والاستيلاء عليه ، سوف يتحطم ويضيع اثناء المعركة . ان علينا ان نتركهم حتى تمر هذه الفترة القاسية ..

ــ وبعد ذلك ؟..

ــ بعد ذلك يأتى دورنا لكى نستعمل معهم القوة لفرض الطاعة والنظام

ــ القوة ؟ لقد كنت اظن ان كل انسان سيكون متمتعا بحريته عندئذ ؟

ــ حريته ؟!

قالها « اين ــ لان » بصوت اجش عنيف ، ثم أردف قائلا :

ــ ان مثل هذه الحرية تعتبر حماقة .. ليس هناك من هو حر فى حياته .. لا أنت ، ولا انا . اننا أجزاء فى آلة كبيرة ، وسيكونون هم ايضا كذلك .. رجل واحد فقط هو الذى يمكن ان يكون حرا ...

ــ من هو ...؟

« شيانج ــ كاى ــ تشيك » .. وعندما يصل الى هذه المدينة ، سيكون ذلك ايذانا بالعهد الجديد .. انه اليوم الذى ننتظره جميعا والذى سوف تتكتل فيه كل القوى للضربة الاخيرة

وفيما كان « آى ــ وان » يتسلل صاعدا الى غرفته الخاصة ، قال لنفسه وهو يتلفت حوله الى كل تحفة موجودة فى اركان القصر :

ــ هل سأهتم كثيرا عندما يأتى هؤلاء البؤساء وينهبون كل شىء منا ؟!

وقال لنفسه :

ــ لا اظن .. اننى لم اهتم يوما بكل ما فى هذا القصر من كنوز ..

وقبل ان يصل الى غرفته ، سمع صوت نحيب يصدر عن غرفة اخيه « آى ــ كو » ، فأرهف أذنيه قليلا ، ثم هز كتفيه ، ودخل غرفته حيث وجد بيونى تضع صحفة الشاى بأدواتها الفضية المذهبة والانية المبطنة باللباد التى يوضع فيها ابريق الشاى لكى يظل ساخنا ..

وقال لها بعد ان تبادل معها التحية :

ــ سمعت أخى « آى ــ كو » ، يبكى فى غرفته ، فماذا حدث ؟

فالتمعت الفرحة فى عينى بيونى وقالت :

ــ لقد قررت الاسرة ان ترسله غدا الى المانيا ليدرس العلوم العسكرية

ــ عجبا ! لماذا ؟!

ــ لانه اختلس من البنك مبلغا من المال انفقه على الغوانى والاصدقاء

واومأ « آى ــ وان » برأسه ، وقال هامسا كأنما يحدث نفسه :

ــ هكذا « آى ــ كو » دائما .. لا يهمه شىء غير نفسه !

ثم اردف قائلا بصوت مسموع :

ــ يبدو انك مبتهجة جدا يا بيونى .. لماذا تكرهين « آى ــ كو » الى هذا الحد ؟

ــ اننى لا استطيع ان اخبرك ، ولا احب ان اخبرك . ولكن يكفى ان تعلم اننى عانيت هنا بسبب رغبات « آى ــ كو » ونزواته واستغلاله لظروفى كجارية !

ــ ولكننا لم نعاملك هنا كجارية يا بيونى !

فهتفت فى حماس وحرارة :

ــ لانك لم تكن تعرف كل الحقائق يا « آى ــ وان » . لم تكن تعرف ان والدتك طالما ارادت ان ترغمنى لارضاء رغبات «آى ــ كو» قائلة اننى مجرد جارية لا قيمة لها ، ولا يحق لها ان تعارض فى شىء ..

ــ اكانت امى تقول لك هذا ؟

ــ نعم .. وكثيرا ما فكرت فى الانتحار بالافيون . وقد اشتريت كمية [illegible]

ثم انخرطت فى بكاء حار ، وأردفت قائلة بين شهقاتها :

ــ اننى كثيرا ما أتساءل : « ما قيمة حياتى ؟ ولماذا أعيش ؟ اننى لست خادمة لأعيش سعيدة بين الخادمات ، وانما جعلتم منى شيئا له قيمته ، ومع ذلك فانى محرومة من أبسط مظاهر الحرية التى يتمتع بها الخدم . لقد علمتمونى القراءة والكتابة ، ولعلكم تنتظرون منى ان أعترف لكم بالجميل .. كان يمكن أن أعترف بجميلكم ، لو كان لى الحق فى التصرف فى حياتى ، لو كان لى ان آمل فى حياة افضل . اما والامر ليس كذلك ، فقد كنت افضل لو انكم تركتمونى جاهلة لكى أظل على جهلى بما يجرى فى الحياة ، ولكى أتزوج رجلا فقيرا أعيش معه قانعة راضية بنصيبى من الحياة !

ثم صاحت قائلة بصوت تخنقه العبرات :

ــ انه ظلم .. ظلم فادح ان تفتح عينا إنسان على أشياء جميلة ثم تحرمه منها أو حتى من حق العمل فى سبيلها ..

وفى تلك اللحظة قرر « آى ــ وان » ان يصارح بيونى بالعمل السرى الذى يقوم به . وكان قد تردد من قبل كثيرا فى مصارحتها .. اما الان ، فقد راى ان الوقت المناسب قد حان !

وبعد أن حدثها عن الثورة ، وعن العهد الجديد المنتظر ، وعن الحرية التى سيتمتع بها الجميع ، وعن الغاء الرق وتوزيع الثروة، نظرت اليه برهة ، ثم ابتسمت وهزت كتفيها وقالت :

ــ اتريد منى ان أصدق ما تقول يا « آى ــ وان » ؟

ــ لماذا لا تصدقين يا بيونى ؟

ــ لانى لا أصدق ان هناك اشخاصا يعملون ويكافحون من اجل غيرهم بلا مقابل ، لا شك ان القائمين بهذه الثورة كغيرهم من الناس .. لهم اغراضهم ومطامعهم الخاصة !

فقال « آى ــ وان » معاتبا :

ــ انك تقولين هذا لأنك لا تعرفينهم ، وتعرفين اشخاصا مثل أبى .. أشخاصا رأسماليين .. !

ــ اننى لا افهم ماذا تعنى بكلمة رأسماليين !.. وانما افهم ان الرجل اذا كان ميسور الحال فانه لا يكره ان يعطى غيره شيئا مما لديه ، ولكن .. هل سمع أحد عن فقير ليس انانيا ؟ انالفقراء

انانيون يحبون ان يكون كل شىء لهم دون غيرهم

فهتف « آى ــ وان » قائلا فى حنق شديد :

ــ ولكنك لم تفهمى شيئا .. انه لن يكون هناك أغنياء وفقراء

فضحكت رغم دموعها ، وقالت ساخرة :

ــ لا تكن ابله !..

ــ ليتنى لم اخبرك بشىء ..

وعندئذ اقتربت منه ، ومالت عليه ، وقالت وهى تضع كفها على خده :

ــ اطمئن .. اننى لن انسى ما قلت لى .. وانا عادة لا انسى شيئا مما تقوله لى . اننى اختزنه فى اعماق نفسى ، ثم اخرجه لافكر فيه حين اكون بمفردى . ولعل أهم شىء هو ألا تدعهم يقبضون عليك ..

ــ اطمئنى من هذه الناحية ..

ــ وحسبى الآن انى فهمت .. فهمت لماذا تقف .. لماذا تتخذ هذا الموقف من .. منى !

ــ ماذا تعنين ؟!

وكانت عند الباب فى طريقها الى الانصراف ، حين أجابت وهى تبتسم :

ــ انك الآن ، كالراهب ..

ثم اسرعت بالخروج وأغلقت الباب وراءها ..

أمل ضائع

قبل الموعد المحدد للاضراب العام بيومين ، عقد « اين ــ لان » آخر اجتماع للجمعية قال فيه :

ــ لقد عرف كل منكم دوره .. ولهذا لا ينبغى ان نجتمع مرة اخرى ، لان رجال الشرطة يوالون مراقبتنا

وبعد الاجتماع ، سار « اين ــ لان » بجوار « آى ــ وان » وقال له :

ــ ان هذه الايام ، هى الايام الحاسمة .. وانى ارجو ان تكون على حذر شديد ، ولعلك لم تخبر احدا فى بيت ابيك بالأمر يا « آى ــ وان » ، لان حياتنا جميعا تعتمد على السرية المطلقة ..

ثم رفع عينيه النفاذتين فجاة الى وجه « آى ــ وان » ، وهز راسه قائلا :

ــ الواضح انك افشيت سرنا لشخص ما يا « آى ــ وان » .. ان وجهك برىء جدا ،ومعبر جدا .. صارحنى بالحقيقة ..

وصارحه « آى ــ وان » قائلا انه اخبر بيونى بكل شىء . ولشد ما فوجىء حين راى لاول مرة « اين ــ لان » غاضبا بصورة مفزعة، وهو يقول :

ــ هل تفشى سرنا لامراة ، وجارية ايضا ؟ هل هناك من هو احمق منك ؟

فقال « آى ــ وان » بحماس :

ــ ان بيونى كأختى تماما ، بل انها على استعداد لان تضحى بحياتها فى سبيلى . ويكفى ان تعلم انها .. انها .. تحبنى ..

ــ انها اولا ليست اختك .. ولعل اسوأ ما فى الأمر انها تحبك ،

لانها سوف تنتقم منك حين تعلم انك لا تبادلها الحب !

ــ ان بيونى ليست كهذا النوع من النساء ..

فصمت « اين ــ لان » برهة قبل ان يقول :

ــ حسنا .. لقد حدث ماحدث وانتهى الأمر . وانى الآن اريد ان ترتب لى مقابلة مع هذه الفتاة فى مكان ما حتى اتأكد انها ليست من النوع المنتقم

فتردد « آى ــ وان » برهة ، وقال :

ــ اعتقد انها سوف تأبى مقابلتك بدافع من الخجل والحياء

ــ وهل الجاريات يعرفن الحياء والخجل ؟

ــ اننا لا نعاملها كجارية ، وانما كواحدة من الاسرة

ــ حاول معها .. لا تنس أن حياتنا جميعا اصبحت معلقة بكلمة منها ..

والواقع ان « آين ــ لان » كان محقا فى خوفه وحذره ، لانه لم يكن يمضى يوم دون ان يقبض رجال المباحث العامة على عشرات من النساء والرجال والطلبة ، ويودعوهم السجن لكى يعدموا بعد محاكمة سريعة

وقال « آى ــ وان » :

ــ سأحاول ..

وبعد يومين ، اعلن الاضراب العام ، وكان « آى ــ وان » يتناول افطاره مع افراد الاسرة ، حين راى اباه يلقى بصحيفة الصباح فى غضب ويقول :

ــ لقد اضرب العمال اخيرا بطريقة جماعية منظمة ، ثلثمائة عامل فى مصانع حرير « تاتوان » ، واربعمائة وخمسة وعشرون عاملا فى مصانع « لنج ــ آى » ، وفى مصانع « سانج ــ رين » ..

ثم ضرب المائدة بقبضة يده ، واردف قائلا :

ــ ان لنا اموالا طائلة مستثمرة فى كل هذه المصانع .. اننى لا ادرى كيف تسمح الحكومة بمثل هذا العبث !

وقال الجد :

ــ كان ينبغى على الحكومة ان تضرب بيد من حديد على هؤلاء العابثين !

وقالت والدة « آى ـ وان » :

ـ ما هى هذه الشيوعية ؟.. اننى لم اسمع بها من قبل ، اهى ديانة اجنبية جديدة ؟!

وقال الوالد وهو ينهض :

ـ يجب ان اسرع الى البنك الآن لارى ماذا ينبغى ان نتخذه من اجراءات . واعتقد ان الامور سوف تصلح عندما يأتى « شيانج كاى ـ تشيك »

وهنا نظر « آى ـ وان » الى ابيه فى سرعة ودهشة ، وقال :

ـ ماذا تعنى يا أبى ؟..

فضحك الوالد بصوت اجش ، وقال :

ـ لا شان لك بمثل هذه الامور الخطيرة ..

ولم يستطع « آى ـ وان » بعد انصراف والده ، ان يخلو ببيونى لكى يطلب منها مقابلة « اين ـ لان » فى ذلك اليوم

وكان يعلم ان الاضراب سوف يستمر واحدا وعشرين يوما ، وان « شيانج ـ كاى ـ تشيك » سوف يصل فى نهاية اليوم الحادى والعشرين ليتسلم زمام الحكم بالمدينة . وكان « آى ـ وان » يعلم كذلك ان العمال المضربين يتقاضون اجورهم من مصادر سرية مما جعلهم غير مهتمين كثيرا بالعودة الى العمل . وكان يراهم يتسكعون فى الطرقات ، وحول المصانع المغلقة ، وفى المقاهى ، ويترددون على دور السينما ، وعلى متاجر الحلوى ، وكلما طلب من كتيبته البالغ عددها ستة وثمانون شابا وفتاة ان تجتمع فى المكان الخلوى السرى ، لم يجد غير افراد قلائل يحضرون الاجتماع لكى ينصرفوا متعجلين . وكان اذا سأل عن سبب تخلف الباقين يسمع هذه الاجابة دائما :

ـ اننا نستمتع فى هذه الايام بما لم نستمتع به من قبل .. اننا نرى من معالم المدينة وملاهيها ما لم نره يوما ما ..

ثم يأخذ كل واحد منهم يحكى ما رآه ، وما استمتع به فى تلك الايام ..

وقال « آى ـ وان » لـ « اين ـ لان » ذات يوم :

ـ يبدو ان العمال جميعا نسوا الهدف الحقيقى من الاضراب

فضحك « اين ـ لان » وقال :

ـ الم اقل لك انك انسان مثالى ، وانك لا تعرف من حقائق الحياة شيئا ! اتظن ان هؤلاء الناس الذين عاشوا حياتهم فى عمل متصل يتركون هذه الفرصة السانحة دون أن يلعبوا ويتسكعوا ، دعهم يلعبون .. ان اليوم الموعود سيكون بمثابة الاعصار الذى سيدمر كل شيء ، وبعدها نبدأ نحن فى التنظيم والترتيب . ماذا فعلت مع تلك الفتاة ؟

ـ لم اجد الفرصة المناسبة لأحدثها فى الامر ..

ـ حاول .. حاول .. لا تكف عن المحاولة !

وكان « آى ـ وان » يشعر ان بيونى ـ على غير عادتها ـ تتجنب الانفراد معه .. ولكنه استطاع فى تلك الليلة ان يقول لها هامسا حين التقى بها على السلم اثناء صعوده الى غرفته :

ـ اننى فى انتظارك يا بيونى ، تعالى فورا ..

ولما جاءت ، اخبرها برغبة « اين ـ لان » فى مقابلتها .. ثم طلب منها ان تحدد المكان والزمان للمقابلة ، وعندئذ نظرت اليه بطرف عينيها ، وقالت :

ـ لماذا لا تدعوه ليتناول معك الشاى هنا ؟

ولم يجب « آى ـ وان » .. انه لم يفكر يوما فى ان يدعو « اين ـ لان » الى القصر ، خشية ان يرى مظاهر هذه الحياة المترفة التى يحياها احد اعضاء الجمعية . وهذا ماجعله يرفض ان يصحب « بنج ـ ليو » معه الى داخل القصر . ولكن : هل يمكن ان يكون « اين ـ لان » حقير النفس ، وضيعا مثل « بنج ـ ليو » ؟ لا .. لا يمكن هذا .. ان « بنج ـ ليو » شخصية وضيعة تافهة مكروهة من الجميع .. ولعل « اين ـ لان » لم يحاول ان يطرده من الجمعية لانه احقر من ان يستحق الطرد . والعجيب ان كلا منهما ينتمى الى والد فقير .. ولكن شتان بين « اين ـ لآن » الذكى القوى المحبوب ، وبين « بنج ـ ليو » الحقير المكروه ، الا ان هذا ايضا ملموس بين ابناء الاغنياء .. فان «آى ـ كو» ـ كما يعرف ـ انسان بغيض مكروه من الجميع ، رغم انه ابن رجل موفور الثراء!

اذن ليس للفقر او الثراء شأن بما عليه النفوس من وضاعة وسمو ..

وافاق من تفكيره على صوت بيونى ، وهى تقول :

ـ انك لم تخبرنى اذا كان « اين ـ لان » هذا وسيما ام لا ؟

ـ لست ادرى .. !

ثم قال لنفسه : « لقد اخطأت حقا فى افشاء السر لها »

وقالت هى :

ـ حسنا ! سوف ارى بنفسى ..!

ثم انصرفت ، وهى تغنى لنفسها بصوت خافت ..!

وفى الموعد المحدد من مساء اليوم التالى ، صحب « آى ـ وان » صديقه « اين ـ لان » الى القصر ، ودخل معه الى الحديقة من بابها الخلفى الصغير الذى كان يحمل معه مفتاحا له ، وما كاد « اين ـ لان » يجد نفسه فى الحديقة الفاخرة حتىراح يتلفت حوله مدهوشا زائغ العينين . ولما وصلا الى السلم الخلفى الذى كان مفروشا ايضا بأفخر انواع السجاد ، قال « اين ـ لان » مترددا .

ـ هل سنمشى على هذا السجاد الفاخر ؟

ـ اجل ..!

ـ اننى اتمنى لو استطعت يوما ان انام تحته !

وفى غرفة « آى ـ وان » الخاصة ، وقف « اين ـ لان » على طرف السجادة الفاخرة التى تغطى الجانب الاكبر من ارضيتها المصقولة ، وتلفت حوله فىذهول ، ثم قال بعد ان اغلق «آى ـ وان» الباب :

ـ اهذا هو المكان الذى تغادره كل يوم فى طريقك الينا ؟

ـ اجل ؟ ماذا به ؟..

ـ انهذه الغرفة وحدها اكثر اتساعا منبيت ابى كله فىالقرية..

وبعد ان تأمل ما فى الغرفة من تحف وروائع ومفروشاتحريرية مطرزة بالذهب ، قال وهو ينظر مرة اخرى الى السجادة :

ـ كم تساوى هذه ؟

ـ اننى لا ادرى .. فانا لم اشتر شيئا فى هـذا القصر ، وانما

نشأت فوجدته على هذا النحو ..

وقال « اين ـ لان » بعد ان خلع معطفه وقلنسوته :

ـ اهذا سريرك ؟

ـ اجل ..

ـ اننى لم ار فى حياتى شيئا كهذا .. ان الغطاء الحريرى وحده يساوى ثروة كاملة .. وما هذه ؟

ـ ستائر لتحجب الشمس .. ولكن اسمع يا « اين ـ لان » .. اننى لست مسئولا عن شىء مما ترى ، لقد نشأت فوجدت كل شىء فيه كما هو الآن

فقال « اين ـ لان » وهو يجلس على مقعد صغير :

ـ اننى لا الومك يا « آى ـ وان » ، وانما اقول لك فى صراحة اننى لو كنت نشأت فى مثل هذا القصر لما انضممت الى جمعيتنا.. ان لديك الآن كل ما تكافح فى سبيل الحصول عليه . اننى يا « آى ـ وان » اقدرك واعترف انك افضل منا جميعا !

واقبلت بيونى تحمل صحفة الشاى مع آنية مليئة بالفطائر والحلوى ، وبعد ان وضعت كل شىء على منضدة صغيرة ، قالت باسمة :

ـ لقد اعددت هذه الفطائر بنفسى ، وانا ارجو ان تنال اعجابكما.!

وقال « آى ـ وان » :

ـ شكرا يا بيونى .. هذا هو صديقى « اين ـ لان » . وهذه هى بيونى التى حدثتك عنها ..

وعندئذ نهض « اين ـ لان » واقفا ، وراح يدير قلنسوته بين يديه فى شىء من الارتباك . ولكن بيونى بادرت تقول :

ـ لا داعى لان تقف تحية لى يا مستر « اين ـ لان » . اننى لست واحدة من افراد الاسرة ، وانما انا جارية ..!

ـ ومن اكون انا ؟ ما انا الا ابن فلاح فقير لا يكاد يجد ما يقيم اوده ..

وراح كل منهما ينظر الى الآخر ، بينما وقف « آى ـ وان » بالقرب منهما ، وهو يشعر كأنه غريب عنهما تماما ..

وقالت بيونى اخيرا :

ــ اكنت تظن انى سافشى سر الجمعية ؟ لا .. ان هذا لن يحدث منى اطلاقا ..

فقال « اين ــ لان » ببطء :

ــ اننى لم اكن اعرفك .. اما الآن ، فانى مطمئن ..

وافاقت بيونى الى حقيقة مكانتهــــا فى القصر ، فالتفتت الى « آى ــ وان » وقالت فى لهجة اعتذار :

ــ آه .. تفضلا بالجلوس قبل ان يبرد الشاى

وقال « اين ــ لان » فى مرح :

ــ وانت ؟

وفوجئت بيونى بهذا السؤال ، كما فوجىء به « آى ــ وان » اذ انه لم يخطر ببال احدهما ، طيلة حياتهما ، انه يمكن ان تجلس الجارية الى مائدة واحدة مع سيدها . ومرة اخرى افاقت بيونى من ذهولها ، وقالت :

ــ اوه .. ان مهمتى هى ان اخدم ، لا ان اجلس مع السادة ..

فقال « اين ــ لان » بحماس :

ــ اذا لم تجلسى ، فلن اجلس انا ايضا . وعندما تقوم الثورة ، فلن يكون هناك اناس يخدمون ، واناس يجلســـون . اليس كذلك يا « آى ــ وان » .. سنكون جميعا متساوين !

وابتسم « آى ــ وان » وقال :

ــ اجل ، اجل .. اجلسى معنا يا بيونى ..

ولما ترددت ، مضى الى الباب فاغلقه بالمفتاح من الداخل ، وقال آمرا :

ــ اجلسى ..

وجلست ، ثم قالت « لاين ــ لان » وهم يتنــاولون الشــاى والحلوى :

ــ حدثنى عن هذه الثورة ..

واخذ « اين ــ لان » يحدثها ، واخذت هى تنصت اليه مبهورة الانفاس . ولما انتهى قالت :

ــ الآن قد اصبحت واحدة منكم ..

وبعد انصراف « اين ــ لان » قالت هى « لآى ــ وان » :

ــ انك لم تحدثنى عن هـــذه الامور الضخمة كما حــدثنى صاحبك ..

فابتسم وقال :

ــ لانه احد الدعاة المتخصصين لهذه الامور ..

ــ ولكنه كان يأكل كحيوان لم يأكل منذ أيام .. !

ــ اسمعى .. انى اريد ان اتحدث معك على انفراد قبل ان انام

فقالت ، وهى تنصرف :

ــ لا .. لن استطيع هذه الليلة ..

▱

واقترب اليوم المنتظر ، وانتشرت الاخبار ان « شيانج ــ كاى ــ شيك » سوف يصل الى المدينة فى اية لحظة بعد سلسلة انتصاراته الاخيرة ، وتحدد اليوم الذى قرر فيه أعضاء الجمعيات السرية أن يتركوا اسراتهم فى الصباح الباكر لينضموا الى الجيش المظفر الزاحف على المدينة . وفى الليلة التى سيشرق فى صباحها ذلك اليوم المشهود ، انفرد « آى ــ وان » ببيونى فى غرفته ، وقال لها هامسا :

ــ اننى سأنصرف فى الفجر عن هذا القصر .. وربما لن اعود اليه مرة اخرى !.. ان التعليمات التى لدى تحتم الا ابذل اى مجهود لانقاذ اسرتى ، ولكن نفسى لا تطاوعنى . اننى لا استطيع ان اترك الثوار يقتحمون القصر ويذبحون ابى وامى وكل افــــراد الاسرة . ان عليك يا بيونى ان تخبرى ابى بالامر بعد انصرافى ، واعتقد ان الفرصة سوف تسنح له وللاسرة بالهروب قبـــل أن يضرب الثوار ضربتهم فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا . هل تعدينى بذلك ؟

واومات بيونى براسها ، وقالت :

ــ اجل يا «آى ــ وان » ..

ورقد « آى ــ وان » فى فراشه مسهدا ، وراح يفكر فيماسوف يحدث فى اليوم التالى من احداث جسام ، واخيرا غلبه النوم على امره ..

وايقظه ابوه فى صباح اليوم التالى بعنف ، وهو يهزه من كتفه . ففتح عينيه ليرى وجه ابيه ، وقد بدا شديد الامتقاع ، والغضب يكاد يتجسم عليه . وسمع أباه يقول له بصوت رهيب :

ـ استيقظ ..

وجلس « آى ـ وان » فى فراشه فورا ، بينما اردف ابوه قائلا بنفس الصوت الحاد الرهيب :

ـ ارتد ملابسك حالا ..

ونهض الشاب ، وهو يقول مدهوشا :

ـ ماهذا ، ماذا حدث ؟ ..

فصاح الوالد قائلا :

ـ الا تعرف ماذا حدث أيها الاحمق الابله ؟ أيها المخادع المغرور !

وكان « آى ـ وان » منذ طفولته يحترم اباه ، ولا يجرؤ على رفع صوته امامه ايا كان الامر . ومن ثم اطرق براسه قائلا ، وقد فهم كل شيء :

ـ ماذا حدث يا ابى ؟ ..

فاخرج ابوه من جيبه قائمة بعدد كبير من الاسماء ، وقال وهو يقدمها اليه :

ـ اقرأ هذه الاسماء ..

وقرأ « آى ـ وان » اسماء جميع اعضاء الجمعيـــــة السرية فى الجامعة ، وكان اسمه بينها .. ولكنه لاحظ ان اسم « بنج ـ ليو » المكروه من الجميع ، لم يكن بينها ، وتذكر عندئذ انه ـ اى « بنج ـ ليو » ـ كان قد امتنع عن التردد على الجامعة فى الشهر الاخير ، بحجة سفره الى قريته مريضا !

اذن فان « بنج ـ ليو » هو العضو الخائن فى الجمعية !. هو الذى نجا بجلده ، بعد ان قدم زملاءه ضحايا ..

وقال الوالد :

ـ هل تعرف معنى هذا ؟

ـ اجل .. من أين جئت بهذه القائمة يا ابى ؟

فحملق والده فى وجهه ، وقال :

ـ وماذا يهمك من هذا ؟ .. اسرع بارتداء ملابسك ، فقد يصل

رجال الشرطة فى اية لحظة للقبض عليك .. لقد جاء « شـــيانج ـ كاى ـ تشيك » الى هنا ..

واحس « آى ـ وان » بجسمه يتخاذل ، وهو يقول :

ـ « شيانج ـ كاى ـ تشيك » ؟!

ـ انه فى المدينة الآن .. وكان هنا امس ..

ـ ولكن .. قيل لنا انه لا يزال فى الطريق الينا بعد ان استولى على الحكم ..

ـ لقد ترك كل هذا لاعوانه واسرع الى شنغهاى .. أسرع بارتداء ملابسك

ـ ولكن .. كيف عرفت يا ابى ؟

ـ رايته بنفسى ..

واحس « آى ـ وان » بالفزع وهو يقول :

ـ انت .. يا ابى .. رايته ؟

ـ نعم .. لقد عقد امس اجتماعا معنا ـ نحن أصحاب البنوك فى المدينة ـ وقال لنا انه لا يريد ان تحدث اية انقلابات أو ثورات فى المدينة ، وأن على رجال المال والاعمال ان يتعاونوا مـع رجال الحكم الجديد . ارتد ملابسك ، ام تريد ان تعدم ؟

وارداد احساس « آى ـ وان » بالانهيـــار ، وهو يقـــول بصوت واه :

ـ هل قال « شيانج ـ كاى ـ تشيك » هذا ؟

ـ اجل .. لانه رجل حكيم .. وقد أمر بتطهير المدينة من جميع الشيوعيين .. وصاح « آى ـ وان » وقد اختنق صوته بالبكاء :

ـ لقد خذلنا اذن .. خذلنا جميعا .. لاشك أن زملائى جميعا الان فى السجون أو على المشانق .. يجب ان أمضى لابحث عنهم .. يجب ..

فدفع به ابوه الى خزانة الملابس ، وقال :

ـ انك ستمضى الآن الى رصيف الميناء .. والسيارة تنتظـر بالباب . لسوف تبحر فى طريقك الى اليابان .. هكذا تعهـدت للمسئولين فى الحكومة الجديدة ، اذا سافرت اليوم ، فســـوف يمحون اسمك من قائمة الشيوعيين

واحس « آى ـ وان » بالارض تميد تحت قدميه ، وهو يهمهم قائلا قبل ان يسقط مغشيا عليه :

ـ اذن فكل شيء لا معنى له .. كل شيء الى ضياع !

وسمع والده يهتف باسم بيونى لتسرع اليه ، وبعد لحظة سمع شخصا يصيح من خارج الغرفة قائلا :

ـ لقـــد هربت بيونى .. هربت من القصر .. اننا لا نجـد لها أثرا !

ستار

الفصل الخامس

همسات الحب

كان « آى ـ وان » يشعر ـ والباخرة تحمله الى ميناء ناجازاكى فى اليابان ـ بالفراغ حوله ، وفى أعماق نفسه . لقد أحس منذ وضع قدميه فى السفينة ، ان كل شيء فى الحياة باطل ، وانه لم يعد له امل يعيش من اجله ، وان عليه منذ تلك اللحظة ان يعيش حياته يوما بيوم ، وان المستقبل بالنسبة له مجرد ضباب اجوف ليس فيه قبس من نور هاد ..

وظل على هذه الحال من الشـــعور بالفراغ ، حتى اقتربت السفينة من ميناء ناجازاكى . ولكنه كان ـ بين الحين والآخر ـ يفيق من هذا الاحساس الاجوف ليذكر أباه ، وبيونى التى هربت ، و « اين ـ لان » صديقه الذى أصبح يعتقد أنه مات مقتولا ، و « بنج ليو » الخائن ، وبلاده التى لفظته وقررت الا يعيش مرة أخرى على ثراها حتى يصبح جديرا بالحياة فيها من جديد !

وكان والده قد ارسله للاقامة فى بيت صديقه المستر موراكى ، التاجر اليابانى الثرى الذى يمتلك شركة كبرى لتجـارة التحف والعاديات والكنوز القديمة التى كان يســـتوردها من مختلف المصادر الشرقية ، ثم يصدرها الى الدول الاوروبية والامريكية

ووقف على سطح السفينة يتطلع الى ميـنـاء ناجازاكى ، وما يحتشد فى مياهه من مئات السفن الصغيرة والقوارب والبواخر وصنادل الشحن وناقلات الفحم ، ثم مد عينيه الى المدينة نفسها التى كانت تمتد كشريط مستطيل بين الجبال المرتفعة والبحر ... وكانت بيوتها مستطيلة ايضا ، وخفيضة ومسطحة الاسقف. وكانت الشمس تتألق عليها ، بينما رأى عنـد قمم الجبال الســحاب منعقدا .. كأنه مظلة تنتشر فوق المدينة شيئا فشيئا ..

وحمل حقيبة سفره اخيرا ، وتبع الركاب الهابطين الى رصيف الميناء .. وكان معظمهم من السائحين الامريكيين الذين جاءوا الى المدينة لمشاهدة معالمها والتجول فيها بضع ساعات ، ريثما تعود السفينة للابحار فى طريقها الى يوكوهاما

وما كاد يهبط الى الميناء ، حتى تقدم منه شاب فى مثل عمره .. ولكنه اقصر قامة ، وامتن جسما ، واكثر سمرة ، وكان يابانى الملامح ، ويرتدى الملابس الافرنجية . وقد سمعه يقول له بلغة صينية ذات لهجة يابانية :

ـ السيد « آى ـ وان » ؟

فرد « آى ـ وان » قائلا :

ـ اجل .. اننى خادمك « آى ـ وان »

ـ اننى ابن المستر موراكى ، واسمى بونجى .. وان ابى يدعوك للاقامة فى بيته ..

ثم ابتسم الشاب ، فبدت اسنانه بيضاء ناصعة ، كما تالقت عيناه بالوداعة واللطف . وفجاة عاد يقول :

ـ ما رايك ؟ هل نتحدث الانجليزية ؟.. انها اسهل ، وان كنت اتحدثها بلهجة يابانية !

ـ حسنا .. اذا شئت

واحس « آى ـ وان » بالميل نحو ذلك الشاب اللطيف منذ اللحظ الاولى ! ولم يلبث ان ركب معه سيارة خاصة صغيرة انطلقت بهما نحو بوابة بيت تحيط به اسوار غير مرتفعة . وهبط بونجى ،وسار بخطوات رشيقة تنم عن قوة جثمانية كبيرة ، وفتح البوابة وهو يقول :

ـ هذا هو بيتنا ..

ومد يده ليحمل حقيبة « آى ـ وان » ، ولكن هذا اصر على ان يحملها بنفسه ، واخيرا اتفق الاثنان على ان يحملاها معا ، ولم يلبث ان اقبل خادم عجوز فحملها عنهما .. وسار الجميع فى ممرات حديقة واسعة لم يشهد « آى ـ وان » لها مثيلا فى حياته

كانت حديقة ذات ممرات وجداول وشلالات صناعية ومعابر وبحيرات صناعية ، وكانت زاخرة بمختلف انواع الاشجار والزهور

التى تدل احواضها على ان اليد التى تعهدتها ونسقتها ، كانت يد فنان بارع .. وقد دهش « آى ـ وان » حين وجد ان عينيه لم تقع ابدا على ورقة شجر ملقاة هنا او هناك ، او عود قش فى الممرات، او على اى شىء فى غير موضعه ..

وقال بونجى :

ـ ان حديقة ابى مشهورة فى كل انحاء اليابان .. ها هو ذا ابى .. واشار الى رجل قصير الجسم ، عجوز ، فى ملابس يابانيه ، كان واقفا بالقرب من مدخل البيت ، ممسكا بغصن شجرة صغيرة . فلما اقتربا منه ، قال الرجل لابنه باليابانية :

ـ هاه .. لقد جئت ..

وعندئذ قال بونجى بالصينية :

ـ هذا هو ضيفنا يا ابى ..

فقال الرجل العجوز على الفور بلغة صينية كالتى تنشر فى الكتب :

ـ فى بيتى هذا الصغير ارحب بابن صديقى كل الترحيب ..

واحب « آى ـ وان » ذلك الرجل العجوز فورا .. واحس بشىء ما فى اعماق نفسه يسخر من قول « اين ـ لان » ذات مرة : « عندما يحدث الانقلاب ، سنحارب اليابان لنسترد ما اخذته من بلادنا » . وكان قد ظل يكره اليابانيين منذ ذلك الحين . اما الآن لقد شعر انه لا يستطيع ان يكره هذا الرجل العجوز الذى يرحب به فى بيته ..

وقال « آى ـ وان » :

ـ اننى اشكر لك هذه الضيافة التى اعتقد اننى لا استحقها..

فقال الرجل العجوز ، وهو لا يزال ممسكا بغصن الشجرة :

ـ هاه ! ان اباك صديقى ، وان كل مالدينا تحت امرك . انظر.. ان اشجار الشليك توشك ان تزهر ، لقد جئت فى الوقت المناسب . ان اليابان كلها سوف تسبح قريبا فى امواج من الزهور ..

وقال بونجى لـ « آى ـ وان » :

ـ ليس فى الدنيا شىء احب الى ابى من الزهور .. انه يعيش الان من اجلى

وابتسم العجوز ، ثم قال بعد لحظة صمت :

ــ يحسن يابونجي أن تمضي بضيفنا العزيز الى غرفته ليزيل عن نفسه وعثاء السفر

وقال بونجي ، وهما في الطريق نحو البيت :

ــ لقد اعتزل ابي الاعمال الآن .. ويقوم بالعمل بدلا منه في الوقت الحاضر اخواي الكبيران ..

ــ وانت ؟

ــ انني كاتب في الادارة هنا ، والاحظ عملية استيراد وتصدير البضائع

ووصلا الى باب واسع ، حيث استقبلتهما خادمتان جميلتان ، كل منهما ترتدي «الكيمونو» الحريري المشجر ، وقد اخذت كل منهما تخلع حذاء احد الشابين ، وتضع مكانه شبشبا يابانيا من الخوص المنسوج الناعم

وتبع « آي ــ وان » صاحبه بونجي صاعدا بضع درجات الى بيت لم يسبق ان رأى له مثيلا من قبل .. فقد كان مكونا من طابق واحد ، وفي ذلك الطابق كانت ثمة غرفات عديدة تفصلها حواجز متحركة . وكانت الغرفات عارية الا من اثاثات ضعيفة ، ولكن « آي ــ وان » لاحظ ان كل غرفة لم تكن تخلو من اواني الزهور الفاخرة ، واروع من هذا كان شذى الحديقة العاطر ينساب الى جميع الغرفات على السواء ..

وقال بونجي :

ــ ان ابي يحب ان يعيش في بيته على الطريقة اليابانية القديمة . ولكنك سوف تجد في غرفتك بعض المقاعد . وان اخي سيو ــ المقيم في يوكوهاما ــ يعيش أيضا على الطريقة الافرنجية ، ولهذا تجد المقاعد كثيرة في بيته ..

وضحك بونجي ، وشاركه « آي ــ وان » في الضحك ، وقد شعر ان ذلك الفراغ الذي يملأ حياته قد بدأ يتلاشى تدريجيا ..

ولما وصلا الى الغرفة المخصصة « لآي ــ وان » قال بونجي :

ــ هذه هي غرفتك .. انها بجوار غرفتي ، وان لها حديقتها الخاصة ..

وازاح حاجزا انيقا مزينا بالمخرمات ، فبدت غرفة رحيبة ليس بها غير مقعدين وثيرين ، وحصير لين سميك ، واناء من الزهور ، وفراش مطوي في ركن منها .. ولكنه كان كله مصنوعا من الحرير الثمين . وكان للغرفة باب آخر يفضي الى حديقة صغيرة خاصة بها .. حديقة مليئة بالزهور ، وبها ممر خاص ، وشلال صناعي صغير ، وجدول من ماء رقراق

وقال بونجي :

ــ لايستطيع احد ان يقتحم عليك حديقتك هذه الا البستاني العجوز .. ومن ثم فهي خاصة بك . واذا شئت شيئا ، فصفق بيديك تحضر اليك الخادمة . وسوف يكون طعام الغداء معدا بعد ساعة . وبعد ان تغتسل وتستريح ، سوف اعود اليك

وجلس « آي ــ وان » على المقعد برهة ، واستغرق في تفكير اقرب الى الذهول ، ولكنه لم يلبث ان صفق بيديه ، فجاءت خادم شابة جميلة ، وانحنت امامه وهي تعقد يديها على صدرها ، فطلب منها ماء للاغتسال ، وسرعان ما احضرت اليه الماء المعطر ، وبعد ان اغتسل واستراح ، سمع نقرا خفيفا على الباب ، فاذن للطارق بالدخول ، فدخل بونجي حاملا « كيمونو » من الحرير الذهبي قائلا :

ــ لقد جئت اليك بهذا الثوب الياباني ، وانا اعتقد انه سيكون ابعث على راحتك من هذه الملابس الافرنجية الضيقة

وشكره « آي ــ وان »، وراح يرتدي الثوب الياباني الفضفاض بينما استدار بونجي بظهره اليه ، متطلعا الى الحديقة الصغيرة الخاصة . ولما فرغ من ارتداء الثوب ، استدار بونجي اليه ، وتأمله قليلا ــ وهو يبتسم ــ ثم قال :

ــ الواقع ان ملابسنا لا تختلف كثيرا عن ملابسكم .. اننا نرتدي الملابس التي كانت شائعة في تاريخكم القديم ، وانتم ترتدون ملابسنا الحديثة . هل تشعر بالراحة فيها ؟ حسنا .. انها تناسب الفتيات جدا . انتظر حتى ترى اختي .. انها موجا .. اعني انها فتاة عصرية .. عصرية بمشاعرها . ولكن أبي يصر على ان ترتدي في البيت الملابس اليابانية التقليدية . آه .. لا شك انك جائع .

هلم .. فان الطعام معد

وضحك الشاب بونجى . وكان دائما ينهى حديثه بضحكة لطيفة، ثم تقدم صاحبه الى غرفة كبيرة مربعة مطلة على الحديقة الرئيسية ، وهناك وقف بالباب وانحنى تحية لوالديه اللذين كانا جالسين الى مائدة منخفضة

وقال :

ــ اماه ! هذا هو ضيفنا « آى ــ وان »

وانحنى « آى ــ وان » لمدام موراكى ، وهو يقول لنفسه « اننى لم ار فى حياتى سيدة جميلة على هذا النحو » وكانت تختلف كثيرا عن والدته البدينة .. اذ كانت صغيرة الحجم ، نحيلة الجسم ، رشيقة الحركة ، ناعمة البشرة رغم بلوغها الخمسين من العمر ، وكانت عيناها السوداوان تنمان عن الوداعة والقدرة البالغة على التحمل والصبر

وكانت تشبه ــ وهى تنحنى له ثم تنتصب ــ زهرة تتجمع ثم تنتشر اوراقها برشاقة مذهلة . وقد قالت وهى تبتسم فى عطف :

ــ انى سعيدة بحضورك ..هل تسمح بالجلوس ؟ .. اننى آسفة اذ أتحدث الانجليزية ، لان لغتى الصينية رديئة جدا

فقال « آى ــ وان » :

ارجو ان اتعلم اللغة اليابانية بسرعة ، وعندئذ استطيع ان اتحدث معك بلغتك ياسيدتى ..

وجلسوا جميعا على حصير فاخر فضى اللون ، حول مائدة خفيضة، ولم تلبث أن اقبلت فتاة فى ميعة الصبا ، متوردة الوجه ، جميلة الملامح ناعمة الشعر ، ترتدى « كيمونو » مشجرا فاخرا .. اقبلت تحمل صحفة فضية عليها أوعية طعام . فوضعت أمام كل واحد من الاكلين وعاء ، ثم انصرفت ..

وبعد انصرافها ضحك بونجى ، وابتسم والداه ، ثم قال :

ــ هذه اختى « تاما » .. انها تشعر الان بالخجل وان تاكل معنا هذه المرة ، ولكنها سوف تتغلب على خجلها سريعا

وقال « آى ــ وان » الذى لم يكن قد نظر الى الفتاة الا لمحة خاطفة :

ــ هل تسمح تقاليدكم بأن اتحدث مع اختك ؟

وتمتمت مدام موراكى بكلمات يابانية قليلة ، ثم قال بونجى :

ــ ان امى تقول : انتظر حتى تعود ، ثم حدثها ..

ولكن الصنف التالى من الطعام جاءت به احدى الخادمات . ومن ثم ، ضحك بونجى وقال :

ــ لقد ادركت « تاما » انا سنحدثك عنها ، ولهذا لم تحضر هذه المرة ..

وضحك الجميع .. وشعر « آى ــ وان » بالبهجة تسرى فى كيانه . لقد وجد ان هذه الاسرة تأخذ الحياة ببساطة ويسر ، وتحاول ان تضحك لكل شىء .. وقالت مدام موراكى عند الفراغ من الطعام :

ــ ارجو ان يكون طعامنا قد اعجبك ..

ــ شكرا .. انه شهى جدا ..

وبعد ان تناولوا الشاى ، استأذنت السيدة موراكى ، وانصرفت .. ثم نظر بونجى الى ابيه الذى لم يلبث ان قال « لآى ــ وان » :

ــ ان والدك يريد ان نعلمك تجارتنا .. فاذا لم يكن لديك مانع، فاننا نرحب بك . وقد رأينا أن تعمل فى الصباح مع بونجى . اما فى المساء فيمكنك ان تتم دراستك او تستمتع بوقتك كما تشاء

فقال « آى ــ وان » وقد ايقن انه سعيد حقا بحضوره الى اليابان :

ــ اننى شاكر لكم هذا الفضل ..

فنهض العجوز موراكى ، وهو يقول :

ــ حسنا جدا .. اتفقنا .. واذا احسست يوما انك غير سعيد معنا ، فيمكنك ان تصارحنى ! اننى هنا فى مكان والدك تماما ..

فرد « آى ــ وان » قائلا بحماس :

ــ اننى واثق اننى ساكون سعيدا جدا بينكم ..

ــ عظيم .. اننى احب أن يكون جميع الذين يعيشون معى سعداء

وبعد ان عاد الى حديقته ، قال بونجى وقد التمعت عيناه مكرا :

ــ لسوف تأتى «تاما» الان ، فكيف تتصرف ياعزيزى «آى ــ وان»؟ هل تحب ان تبدو « موبو » اى فتى عصريا ، أو تفضل ان تكون

شرقيا صميما ؟

فابتسم « آى ـ وان » وقال بخجل :

ـ كيف تحب هى ان اكون ؟

ـ لن أخبرك . . وسوف ترى بنفسك . آه . . ها هى ذى مقبلة . .

وانزلق الحاجز برفق ، ووقفت «تاما» فى مدخل الغرفة مترددة، ورفع « آى ـ وان » عينيه اليها . . فرأى فتاة فى نحو السابعة عشرة من عمرها ، ترتدى « كيمونو » وردى اللون ، وتضع فى قدميها الصغيرتين حذاء يابانيا ، وحول خصرها حزام من الجلد الذهبى ، وشعرها الاسود الفاحم يتهدل على كتفيها ، على الطريقة العصرية، وقد احاط بوجه مستدير متورد دقيق الملامح ، عذب السمات . . ولم يطل ترددها غير لحظة واحدة، انحنت بعدها امام «آى ـ وان» برشاقة كما فعلت امها ، ثم قالت لأخيها :

ـ اتسمح يا يونجى ؟

وقال يونجى وعيناه تتراقصان مكرا :

ـ هذه اختى تاما . . وهذا يا تاما ضيفنا « آى ـ وان »

ومرة اخرى انحنت تاما ، ثم تقدمت وهى تمد يدها قائلة :

ـ لنتصافح . . اليس كذلك ؟ . ان يونجى قال انك فتى عصرى، وانا كذلك . ولكن أبى يحب التقاليد القديمة . . اننى طالبة بجامعة كيوشو

ومد « آى ـ وان » يده وصافحها ، ثم رفع عينيه مرة اخرى اليها ، وعندما تلاقت نظراتهما ، احس كان شيئا فى اعماق نفسه يهمس ، ولكنه لم يكن يدرى فى تلك اللحظة انها همسات الحب للقلب البكر . . !

الفصل السادس

عذابات الحب

استقر « آى ـ وان » فى حياته الجديدة ، سعيد النفس ، مطمئنا الى الحياة ؛ متحررا تماما من تلك الآمال الجوفاء التى عاشها خلال هذه الفترة العصيبة التى عاشها فى وطنه ، متسائلا فى نفسه بين الحين والآخر عن المصير الذى انتهى اليه كل من يبوئى و « اين ـ لان » . وكان يشعر فى قرارة نفسه أن «اين ـ لان» قد مات . ولكن . . ماذا عن يبوئى !

واستلم عمله فى ادارة شركة الاستيراد والتصدير التى يمتلكها مضيفه المستر موراكى ، ويديرها ابناؤه الثلاثة . وكان يدير فرعها فى ناجازاكى ابنه الاوسط آكيو . وكان رجلا فى نحو الثالثة والثلاثين من العمر ، هادئا ، مكتئب السمت دائما ، قليل الكلام . وقد قال يونجى عنه « لآى ـ وان » ان اكتئاب اخيه اكيو يرجع الى حالة من الخلاف المزمن بينه وبين ابيه . . ذلك ان اكيو كان قد احب فتاة يابانية تدعى سومى ، واصر على الزواج منها . ورفض الوالد العنيد أن يوافق على هذا الزواج ، فاضطر اكيو الى ان يستاجر لعشيقته بيتا خاصا فى اطراف المدينة ، وان يحيا معها حياة تشبه الزوجية ، وان لم تكن لها شرعية الزواج . ولم يعترف الوالد بهذه العلاقة ، فكان اكيو يعيش فى بيت ابيه كواحد من افراد الاسرة ، ولكنه كان يبيت لياليه مع حبيبته فى بيت خاص . .

وراح « آى ـ وان » يبذل كل ما يستطيع من جهد ليتعلم اسرار تجارة الاستيراد والتصدير ، ولكى يظفر باعجاب المستر موراكى الذى كان يراسل اباه بانتظام . وكان هو ايضا يراسل اباه ، ويعلم من خطاباته بان الحالة فى وطنه قد استقرت ، وان

الجنرال « شيانج ـ كاى ـ تشيك » قد امتلك زمام الامر ، وقضى على جميع معارضيه ، وطرد الشيوعيين الى الجبال

وكانت لغرفة مكتبه فى ادارة الشركة بالميناء ، نافذة تطل على البحر ، وكان بونجى كثيرا ما يقول له وهو يشير الى المياه الممتدة على مدى البصر :

ـ لو نظرت من هذه النافذة فى خط مستقيم ، فسوف تجد وطنك امامك مباشرة

وكان « آى ـ وان » يبتسم فى حزن ولا يجيب ، ولكنه كان يقول لنفسه : « هل عاد لى وطن ، بعد ان خرجت منه هاربا ! »

ومضت اربعة اشهر على هذه الحال ، كان يرى خلالها « تاما » كل يوم تقريبا فى وقت الغداء . ولكنه لم يكن يستطيع ان يتبادل معها الحديث على انفراد ، بعد ان علم ان التقاليد اليابانية تمنع وجود اى نوع من العلاقات الخارجية بين فتاة وفتى غريب عنها ، حتى لو كان ضيفا مقيما فى بيت والدها

ولكن « آى ـ وان » وجد فى الكتب الادبية عالما جديدا ، كان لا يعرف عنه شيئا حتى ذلك الحين . لقد كانت معظم قراءاته من قبل تدور حول النظم الاجتماعية ، والاحداث التاريخية ، والآراء السياسية . اما الآن ، فقد وجد الوقت الكافى ليعيش مع ابطال روايات عالمية ، ولشد ما كان قلبه يخفق وهو يقرأ عن الحب .. الحب الذى كانت همساته لا تكف عن التردد فى اعماق قلبه !

وفى ذات يوم من ايام الصيف ، بعد الاشهر الاربعة الاولى من اقامته فى اليابان ، شعر وهو فى غرفته بقلق لا يدرى سببه ... فنهض وارتدى ثوبه اليابانى ، ومضى الى غرفة الطعام . وهناك شاهد « تاما » بمفردها ترتب وتنسق الازهار فى مزاهرها ، فلما استدارت اليه بدهشة ، قال معتذرا :

ـ انى آسف .. يبدو انى جئت مبكرا عن الموعد

وقبل ان يتراجع ، سمعها تقول له :

ـ لا عليك .. ولا داعى لان تنصرف الآن ..

وكانت تلك اول مرة يقف فيها معها بمفرده ، بل كانت تلك اول مرة يتحدث فيها على انفراد مع اية فتاة ـ فيما عدا بيونى طبعا ـ

ولم تكن بيونى تمثل فى نظره هذا النوع من الفتيات . لقد نشأ وهو يراها جارية وان لم يكن يعاملها كجارية

ووقف ينظر اليها مذهولا ، وهى تنسق الازهار ببراعة .. فلما فرغت ، التفتت اليه باسمة وقالت :

ـ ما رايك فى هذا ؟

ـ رائع .. رائع ..

ـ اننا نتعلم هذه الاشياء .. نحن الفتيات اليابانيات

ثم لوت شفتيها ، واستأنفت كلامها بدلال :

ـ ولكننى لا اجد احدا يعلمنى الاشياء التى اريد حقا ان اعرفها

وقبل ان يسألها عن هذه الاشياء ، انزلق الحاجز ، وظهر المستر موراكى ـ وقد بدت عليه الدهشة حين رآهما معا ـ ولكنه انحنى محييا ، بينما اسرعت « تاما » تقول :

ـ ما رايك يا ابى فى هذه الزهور ؟

واشرق وجه الرجل العجوز ، وهو يرى امامه احب شىء اليه فى الحياة ، ثم تناول المقص وتقدم نحو المزهرة وهو يقول :

ـ عظيم ، عظيم .. ولكن كان ينبغى ان تشذبى هذا الغصن هكذا .. آه ، ان للزهور لغة تعلم الانسان يا « تاما » فن الحياة !

ولما أوى « آى ـ وان » الى فراشه فى تلك الليلة ، راح يستعيد فى ذاكرته كل كلمة ، وكل نظرة ، بدرت من « تاما » اليه . وكان يشعر بقلبه يخفق فى قوة كلما تمادى فى ذكرياته ، واخيرا قال لنفسه وهو يضحك فى جزل ، ويتناول قصة حب :

« يبدو اننى ايضا اعيش فى قصة حب »

ومضت الايام والشهور مرة اخرى ، دون ان تتاح له فرصة الحديث على انفراد مع « تاما » ثانية . ولكنه كان يشعر من نظراتها اليه ، ان همسات الحب قد ترددت ايضا فى قلبها . وكان هذا حسبه .. اذ كان يعلم تماما ان والدها ، لو عرف بما بينهما من شعور متبادل ، لارسل به فورا الى وطنه

ولم يكن هذا هو التقليد الوحيد الغريب الذى شاهده فى اليابان . لقد كان فى كل يوم يرى تقاليد اعجب واغرب .. فمثلا راى ذات

يوم غلامين يحمل كل منهما سلة طعام وينطلق بدراجته ليصل بها الى احد العملاء . ثم حدث ان اصطدم احدهما بالآخر ، وتناثرت محتويات السلتين فى الطريق . وتوقع « آى ـ وان » ان يرى الغلامين يشتبكان فى معركة عنيفة ، ان لم تكن بالايدى ، فباللسان. ولكن لشد ما كانت دهشته حين راى احدهما ينحنى للآخر باحترام ويقول :

ـ انى آسف . . هذه غلطتى . .

فيرد الثانى قائلا بحماس :

ـ بل هى غلطتى انا . . معذرة !

ثم يأخذ كل منهما فى جمع محتويات سلة الآخر ، ويعيدها اليه وهو يكرر الاعتذار !

وكاد « آى ـ وان » ، عندما ذهب لاول مرة مع يونجى الى الحمام العام الا يصدق عينيه حين راى اليابانيين ـ نساء ورجالا ـ يستحمون معا وهم عرايا تماما . ولما أعرب عن دهشته ليونجى ، قال هذا له ببساطة :

ـ هذا تقليد معترف به . . ولا عيب فيه . وانما العيب الكبير الذى لا يغتفر هو ان يضبط احد الرجال ينظر الى احدى النساء. ان المراة تشعر بالاهانة اذا نظر رجل الى جسدها العارى !

ولم يجب « آى ـ وان » بشىء . وانما راح يعجب لهؤلاء اليابانيين الذين عرفوا كيف يتسامون بالغرائز الجنسية ، وكيف يتحكمون فى هذه المشاعر الحارة التى بدات تتدفق فى دمائه ، وتشغل تفكيره بعد ان تحرر من تلك الآمال الخيالية التى عاش عبدا لها حتى وصوله الى اليابان . .

اكثر من أربع أو خمس مرات سأل « آى ـ وان » صديقه يونجى ـ اثناء العامين الاولين اللذين قضاهما فى اليابان ـ قائلا :

ـ الا ترى يا يونجى انه لا ينبغى لى ان ابقى مقيما فى ضيافتكم، الا يحسن ان اتخذ لنفسى غرفة فى فندق !

وكان يونجى يصيح محتجا فى كل مرة ، ثم يخبر اباه بما سمع. . وكان الوالد يأتى الى « آى ـ وان » ويقول له بصوته الهادىء

ولهجته الرقيقة :

ـ لا تغادرنا يا ولدى العزيز ، فانى احب ان يبقى معنا ابن اعز اصدقائى

وكانت « تاما » قد انتهت من دراستها فى نهاية هذين العامين ، واستقرت بالبيت . ورغم هذا ، لم يستطع « آى ـ وان » أن ينفرد معها فى مكان ما ، سواء بالحديقة أو بداخل البيت ليتحدث معها بحرية . وكان كل شىء ـ ظاهريا ـ ينم على أن لها مطلق الحرية فى التجوال خلال الحديقة او فى غرفات البيت . ومع ذلك فانه لم يحاول مرة ان يتحدث معها على انفراد حتى يرى امها او اباها او احدى الخادمات تبرز من مكان ما ، وكأن الامر قد حدث مصادفة !

الا انه لاحظ تغييرا كبيرا طرا عليها بعد ان انقطعت عن الدراسة، واستقرت بالبيت ، لاحظ انها فقدت كثيرا من مرحها السابق ، واصبحت اكثر صمتا ، واميل الى العزلة ، واشد استغراقا فى التفكير ، وقد سأل « آى ـ وان » صاحبه يونجى ذات يوم قائلا :

ـ ما سبب هذا التغيير الذى طرا على « تاما » منذ استقرت للاقامة بالبيت ؟ . .

فقال يونجى بلا مبالاة

ـ انها الآن فى دور الاعداد للزواج

فقال « آى ـ وان » مدهوشا :

ـ الزواج ؟ هل ستتزوج ؟

ولم تكن فكرة زواج « تاما » قد خطرت بباله من قبل . ولكن ، لا شك انها ستتزوج وقد بلغت العشرين من عمرها تقريبا

ورد يونجى قائلا ، وهو ينشر مظلته اثناء سيرهما من الادارة الى البيت فى يوم مطير :

ـ طبعا سوف تتزوج . . ولكن لم يستقر بعد ، الراى بشأن زواجها ، الا انه من عاداتنا بعد ان تنال الفتاة كفايتها من التعليم، ان تستقر فى البيت ، لتتعلم الطهو ، والخياطة ، وتنسيق الزهور ، وصنع الشاى ، والعزف على الآلات الموسيقية ، وكل شىء يمكن ان يسعد زوجها

وعاد « آى ــ وان » يقول وقد احس بالجفاف فى حلقه

ــ اذن سوف تتزوج « تاما » ؟

وقال بونجى :

ــ اجل .. ولكن ليس الآن ، ان عليها ان تتعلم اشياء أخرى كثيرة عن الحياة الزوجية ، ومن المحتمل ان تستأجر لها امى احدى فتيات الجيشا لتعلمها اسرار هذه الحياة

وشعر « آى ــ وان » بالرعب يستبد به .. أيمكن ان يتصور «تاما» وهى زوجة رجل آخر .. تتعلم كل شىء لكى تسعده ؟

وقرر أن ينتهز تلك الفرصة ، ليعرف عنها من بونجى كل مايمكن معرفته ، فعاد يقول :

ــ هل أنت واثق يا بونجى انها ليست مخطوبة ؟

وقال بونجى ، وهو يهز كتفيه ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة لها دلالتها :

ــ لا دخل لى فى مسألة زواجها او خطبتها يا « آى ــ وان » . ولكننى اعتبرك اخا لى ، ومن ثم استطيع ان اقول لك ان ابى يريد ان يزوجها بالجنرال سيكى

وكان « آى ــ وان » قد عرف اثناء اقامته فى ناجازاكى من هو ذلك الجنرال سيكى . عرف انه كهل فى نحو الخمسين من عمره ، مشهور بمعاركه الحربية المظفرة ، وبثروته الطائلة ، وبنفوذه الواسع فى البلاط الملكى ، وبحبه للمظاهر امام الشعب . ذلك انه حرص عند وفاة زوجته ان تشيع فى موكب جنازى لم تشهد له ناجازاكى مثيلا

واحس « آى ــ واى » بالغثيان ، وهو يذكر هذا كله ، ثم يقول لبونجى :

ــ لا يجوز فى رايى ان تتزوج الفتيات الناضرات بكهول سمان ، غليظى الاعناق ، مثل الجنرال سيكى !

ــ ان الجنرال سيكى صديق قديم لابى ..

ثم ضحك بونجى ، واردف قائلا :

ــ لاتفكر كثيرا فى مثل هذه الامور يا « آى ــ وان » .. لا تجعل للحب كل هذه الاهمية .. انظر الى أخى آكيو ! الا ترى الى أى حد يبدو مكتئب السمات بسبب حبه لسوحى ؟

فقال « آى ــ وان » ببطء :

ــ اننى لا أفكر فى الحب .. وانما أفكر فى «تاما»

وعندئذ شعر بشىء كأنما يهمس فى أعماق نفسه : «وما الفرق بين الاثنين .. أليست «تاما» هى الحب ؟ ! »

الفصل السابع

يوم سعيد

ولما تراجع الصيف ليترك المجال للخريف ، شعر « آى ــ وان » بالحب يملأ عليه نفســه الى حد قرر معه ان يفاتح والد «تاما» فى امر زواجها . وكان يعرف فى قرارة نفســه ، أن والده لن يعارض فى مثل هذا الزواج . . بل كان واثقا انه سوف يرحب به ويباركه . وكان يرى ان يتقدم لخطبة «تاما» على الطريقــة العصرية ، اى لا يلجأ الى احد ليتوسط له فى هذا الامر . ولكنه كان ــ كلماالتقى بالمستر موراكى العجوز ــ وجد انه لن يستطيع ان يفاتحه فى امر كهذا ·· ذلك أن الرجل كانت له هيبة تبعث فى قلب «آى ــ وان» الخشية والرهبة . ثم من يدريه انها ــ اى «تاما» ــ سوف ترحب به زوجا ؟ . انه يرى عينيها تتألقان حقا بنور خفى كلمــا التقت نظراتهما . . ولكن ، من يدريه ان هذا هو الحب ؟ انه لم يعرف الحب من قبل مع أية فتاة أخرى ، وأن شعوره السابق نحو بيونى لم يكن اكثر من مجرد اشتهاء . وقد قرا فى كتب الحب ان هناك فارقا كبيرا بين الاشتهاء والحب

وايا كان الامر ، فســواء كانت «تاما» تبادله الحب أم لا ، فان عليه أن يطلب منها الامتناع عن زواج رجل مثل الجنرال سيكى ، وان عليه ان ينتهز أول فرصة ليقول لها هذا . . فاذا فعل،فسوف يشعر بشىء من راحة الضمير

وظل يتحين الفرص للحديث معها على انفراد ، ولكن الرقابة داخل البيت كانت محكمة ــ وان بدت ظاهريا غير مقصودة ــ وكان فى قرارة نفسه يشعر بالضيق والاستياء ويتساءل : هل بدر منه ما يجعلهم يتشككون فى نواياه !

وسنحت الفرصة ذات يوم بعد الظهر . وكان الشتاء قد كسى المدينة ببرده ، ووضع على صفحات الجداول والانهار تلك الطبقة الرقيقة من الجليد ، وكانت واقفة فى حديقة البيت منحنية على غصن شجرة صغيرة ، فأسرع نحوها قبل ان يبرز احد من افراد الاسرة او الخدم ، وقال لها :

ــ «تاما» . . اريد ان اقول لك شيئا . .

وتلعثم برهة . . وكان يتحدث باللغة اليابانية التى غدا يتقنها :

ــ وكنت أريد أن أقوله لك منذ مدة طويلة ··

ورفعت عينيها اليه ، وكانت فى نظراتها رقة ومودة ، مماشجعه على الاستطراد قائلا :

ــ لا يجب أن تتزوجى الجنرال سيكى ، او اى رجل عجوز ·· لا يا « تاما » ارجوك . .

وقبل ان يزيد على هذا كلمة اخرى ، لمح مطرف السيدةموراكى يرفرف وهى تقترب نحوهما بسرعة ، وان حاولت ان تجعل الامر يبدو طبيعيــا · وخطر بباله أن يبتعد ، ولكنه وقف جــامدا فى مكانه ، وهو يقول لنفســه « لماذا انصرف وكانى مذنب هارب » ولمحت «تاما» امها ، فتقدمت نحوها ، ولكنها بعد ان قالت بصوت هامس « لآى ــ وان » :

ــ انتى لن أتزوج الا من أريد . .

وكان صوتها الخافت ينم ــ رغم هذا ــ عن روح من الاصرار والعناد . ومن ثم ، احس كان فيضا من السعادة يفيض فى حنايا نفســه

قال يونجى فجاة ، وهو جالس فى مكتبــــه ذات يوم من أيام الربيع :

ــ أريد نزهة الى الجبل ·· لماذا لا ؟ اننا لم نستمتع بعطلة يوم منذ بدء العام الجديد . لقد أوشكت ساقاى على التجمد !

وكان « آى ــ وان » قد تعود أن يفاجئه يونجى بمثــــل هــــذه الاقتراحات ·· كان يبقى ساكنا أياما أو أسابيع ، ثم اذا هو يعرب فجأة عن رغبته فى القيام بنزهة الى أعلى الجبل ··

وابتسم « آى ــ وان » وهو يتذكر مرح بونجى فى مثل هـــذه المناسبات ، وقدرته الفـــائقة على الجرى بســـاقيه المقوستين ، ثم قال :

ــ متى ؟

ــ غدا .. سوف نذهب الى قمة اترين ، واعتقد ان ازهـــار البنفسج سوف تكون متفتحة

ثم توقف برهة ، قبل أن يردف وهو يبتسم :

ــ وسوف نصحب «تاما» .. ما رأيك ؟ لقد كانت دائما تصحبنى الى مثل هذه النزهات قبل أن تأتى أنت الينا ..

وشغل « آى ــ وان » نفسه بحشو مبسمه واشعاله ، ثم تدخينه .. حتى لا يلحظ بونجى مابدا عليه من اضطراب مفاجىء ، وأخيرا بصوت حاول جاهدا أن يجعله طبيعيا :

ــ وهل يمكن أن تأتى ؟

فقال بونجى بصوت عابث وهو يرنو الى « آى ــ وان » بطرف عينيه :

ــ لا أدرى .. هذا يتوقف على رغبتها الخاصة ، فاذا رات أن مثل هذه النزهة ستكون ممتعة ، فسوف تغامر بالذهاب معنـــا رغم ما سوف تلقاه من تعنيف أبينا بعد ذلك !

ــ هل تعنى أنها اذا جاءت معنا .. ؟

ــ نعم .. سوف تأتى دون اذن من الوالد !

ــ أوه ! !

وعاد بونجى يقول بهدوء :

ــ سوف نرى على كل حال . اذا كانت لها رغبة فى اصطحابنا ، فلن يستطيع أحد أن يمنعها ..

ثم ارسل ضحكة مفاجئة ، مما جعل « آى ــ وان » يقول له :

ــ لماذا تضحك ؟

ــ لا لشىء معين .. اننى فقط لا أحب ذلك الجنرال سيكى

وهز « آى ــ وان » كتفيه ، وانحنى على مكتبه ، وراح يستأنف العمل

وامضى ليلته بين الارق حينا والنوم حينـــا ، وهو لايدرى هل

ستذهب « تاما » معهما الى الجبل فى الصباح ؛ أو ستمتنع . وكان يدرك فى قرارة نفسه أن مصير حبه سوف يتقرر فى الصباح .. فاذا علم أنها ستذهب معهما ، فسوف يوقن أنها تبـــادله الحب ، أو بعض الحب . واذا كان العكس ، فسوف يعلم أنها لا تهتم بأمـــره أكثر من أنه مجرد ضيف وابن لصديق أبيها !

ولما رآها فى الصباح ، علم أنها ستذهب معهما .. فقـــد كانت تبدو ناضرة ، منتعشة ، ضاحكة السمات ، متألقة النظرات . وكانت مرتدية « كيمونو » من القطن المشجر ، من النوع الذى ترتديه الفلاحات أو الفتيات الصاعدات الى الجبل

وقال لنفسه بقلب خافق ، وهو يتطلع الى عنقها العاجى ووجهها المتورد :

ــ انها سعيدة بذهابها معنا ..

وسمعها تقول لبونجى بصوت كأنه التغريد :

ــ أين العصى يابونجى ! لقد أعددت طعام الغداء ، وبعض قطع الاقمشة لكى نلف بها أحذيتنا عند تسلقنا الصخور

وبدأوا معا رحلتهم ، كأنهم اخوان واخت . وفى أثناء الطريق ، اخذت الهواجس تنوش قلب « آى ــ وان » وهو يرى « تاما » تنطلق معهما فى رشاقة وخفة ونشاط . لقد قرأ ان الفتيـــات العاشقات يمرضن من فرط الحب ، وتشحب وجوههن ، ويبدو الاعياء فى كل حركاتهن . اما هذه ، فانها تبدو فى حالة صحية كاملة تنم على أنها غير مشغولة الفكر أو القلب بشىء !

وارتسم القلق على وجهه ، حين وصل فى تفكيره الى هذه النتيجة .. ولكن سمات هذا القلق لم تلبث ان زالت امام جمال الجو فى ذلك اليوم ، وامام صيحات الاطفال الضاحكين الذين كانوا يلوحون لهم من الحقول ، وقد قال بونجى بصوت كله الابتهاج :

ــ ان الجو اليوم رائع ..

ــ الواقع اننى لم ار فى اليابان يوما اجمل من هذا منذ جئت..!

وقالت «تاما» :

ــ لا أظن أنه يوجد فى اليابان ــ بل فى العالم كله ــ أيام كثيرة مثل هذا اليوم البديع

والواقع ان كل شيء كان يبدو في ذلك اليوم ضاحكا ، ينبض بالسعادة والبشر . وفي أثناء الطريق ، عنـــدما انعطفوا الى ممر صاعد نحو الجبل ، فوجيء «آي ـ وان» بفتاة قروية في ميعة الصبا ـ واقفة عارية تماما في مياه جدول صغير كان يجري بجوار الممر ـ وكانت مياه الجدول لاتكاد تصل الى ركبتيها ! وكان شعرها الاسود الناعم يتهدل على كتفيها ، ويحيط بوجهها الضاحك السعيد . وكان « آي ـ وان » قد حملق فيها بسبب المفاجأة والدهشة قبل أن يتمكن ويبعد نظراته عنها . ولكنه اســـتطاع ان يرى في نظرته السريعة المفاجئة ، أن الفتاة لاتشعر بأي خجل أو ارتباك ، وكأنمــا الامر طبيعي جدا . ولم يقل بونجي شيئا ، وانمـــا ترك « تاما » ترد على الفتاة ، وهي تهتف قائلة لهم :

ـ الى اين ايها الاعزاء !

ـ الى العيون الساخنة ..

ـ انه يوم جميل لمثل هذه النزهة ..

وقالت « تاما » بعد أن ابتعدوا عن الفتاة :

ـ ما اجملها ، وهي واقفة هكذا وماء الجدول يداعب قدميها !

ووافقها بونجي قائلا :

ـ أجل .. انها جميلة فعلا ..

ووصلوا جميعا الى الفندق الذي يقع بجوار العيون المعـــدنية الساخنة ، وهناك أمضوا فترة الصباح الى الظهيرة في ضحك ولعب واستحمام وجري بين صخور الجبل . وكان « آي ـ وان » وبونجي يستحمان في العين العامة ، بينما حرصت « تاما » على الاستحمام في عين خاصة تحيط بها الحواجز .. ولعلهـــا كانت تأبى ان تقع نظرات اجنبي مثل « آي ـ وان » على جسدها العاري

وعادوا الى الفندق في ساعة الغداء ، وهناك وجدوا صاحبه قد أعد لهم الطعام في مكان خاص يشرف على الجبل والوديان الخضراء التي تتخلله ، ووضع « آي ـ وان » حشية بجوار النافذة وقال لـ « تاما » :

ـ يحسن أن تجلسي هنا ، لان هذا أفضل مكان ..

فقالت ، وهي تريح نظراتها على وجهه :

ـ لسوف أجلس حيث تريد ..

وأحس بالدوار في تلك اللحظة ، وهو يسمع نبرات صوتها التي تنم عن الخضوع والاستسلام ..

وفي اثناء عودتهم الى البيت ، راحوا يتسابقون .. فكانت « تاما » تعدو كالظبي الشارد ، وكان الشابان يحاولان اللحاق بها . وفي احدى المرات ، اندفع « آي ـ وان » ســـابقا بونجي .. وكاد في اندفاعه ـ بعد أن اقترب من « تاما » ـ ان يتعثر ويسقط ، لولا أن مدت هي يدها وامسكت بيده في قوة أدهشته

وكانت تلك أول مرة يلمسها فيها .. وقد فوجيء بما تنطـوي عليه يدها من نقيضين : الرقة والقوة !

وعندما وصلوا الى الطريق العام ، ووقفوا في محطة الســـيارة الحافلة التي ستحملهم الى البيت ، قال « آي ـ وان » لـ « تاما » :

ـ هل استمتعت بهذا اليوم ؟

فأجابت بسرعة :

ـ أجل ..

ـ انه بالنسبة لي أجمل يوم مر في حياتي ..

وانتظر أن تقول شيئا ، ولما بقيت صامتة ، قال :

ـ وأنت ؟

فقالت :

ـ انني لا أدري تماما .. ولكنني أعتقد ان هـــذا اليوم ليس له مثيل في أيام حياتي !

وايقن « آي ـ وان » عندئذ ان « تاما » تبادله الحب !

الفصل الثامن

في سكون الليل

وفي اليوم التالي ، قال بونجي لـ « آي ـ وان » :

ـ ان أبي غاضب من « تاما »

وكان « آي ـ وان » جالسا الى مكتبه بالادارة ، لايزال يحلم باليوم السابق .. وكان في أثناء الليل يسمع رذاذ المطر وهو يتساقط على سقف البيت فيقول لنفسه :

ـ لا شك ان « تاما » تسمعه الان ايضا ..

وفي الصباح ، رأى الحديقة تتألق ناضرة مغسولة بامطار الليل ، فقال لنفسه

ـ اين « تاما » الان ترى الحديقة كذلك ..

وكان يحس ان كل شيء تراه « تاما » يبدو في نظره جميلا ساحرا ، كانما لمسته عصا ساحر ..

ولكن كلمات بونجي جعلته يفيق من أحلامه ، ويقول :

ـ غاضب من « تاما » ؟

فقال بونجي ، وهو يعمل على الآلة الحاسبة :

ـ اجل .. ولكننا كنا نتوقع هذا على كل حال ، الا انه كان قاسيا في تعنيفه لها ، ولو اقتصر الامر على هذا ، لهانت الكارثة ..

ـ الكارثة ! ؟ ..

ـ لقد ازداد اصرارا الان على ان يزوجها بالجنرال سيكي بعد ان قال هذا الجنرال انه لم يعد يستطيع صبرا

ودار رأس « آي ـ وان » ولم يستطع ان يقول شيئا ، ومن ثم استطرد بونجي قائلا :

ـ ولكنها لن تتزوجه ، ولو انتظر ألف عام .. حسنا .. علينا

أن نشحن اليوم الى أمريكا هذه الصناديق الخمسين من لعب الاطفال العاجية

وتمتم « آي ـ وان » بذهول ، وقد احس بالجفاف في حلقه :

ـ احقا أنها لن تتزوجه ؟ !

ـ أوه .. أجل .. اننا جميعا نعارض في هذا الزواج ، وان والدتي تعارضه أيضا .. ولكنها لا تستطيع بحكم التقاليد ان تعلن عن معارضتها ، وانما تبذل جهدها في انتحال الاعذار للتأجيل ، وهي جد بارعة في هذا ..

وعاد « آي ـ وان » يتمتم قائلا :

ـ ولكن لابد أن يكون لهذا التأجيل حد ..

ـ نعم .. ولكن « تاما » لن تتزوجه .. انها لن تتردد في ان تقتل نفسها ، اذا اضطرها والدنا على زواجها له .. أننا نعرف هذا ، وهي عنيدة الى أقصى حد .. رغم مايبدو عليها من وداعة ولطف

وفيما كان بونجي يفتح احد الادراج ، قال له « آي ـ وان » معاتبا :

ـ أكل هذا يجري في البيت ، وأنت ..

فضحك بونجي ، وقال :

ـ ان مشاكل الحب أصبحت شائعة الآن .. ولايكاد يخلو بيت منها في هذا العصر الحديث ، وطالما ان الكبار يريدون أن يفرضوا ارادتهم ، وان الصغار لايكفون عن الحب ، فان هذه المشاكل لن تنتهي أبدا ..

ثم ضحك مرة أخرى ، وقال :

ـ ما عداي أنا .. فان هذه المشاكل لن تعرف طريقها الي ، لانني قررت الا اقع في شباك الحب !

ولكن « آي ـ وان » لم يضحك ، وانما قال في ألم :

ـ لماذا يريد هذا الجنرال سيكي ان يتزوج « تاما » بالذات ؟ !

ـ اوه .. انه رجل واسع النفوذ والثراء ، ومن طائفة الساموري وما الى هذا ، وشجاع في الحرب ، ويريد أن يتزوج فتاة تتمتع بصحة جيدة حتى ينجب أبناء اقوياء ، يحاربون من أجل الوطن والامبراطور .. ان العجائز هنا يعبدون الوطن .. والامبراطور !

- وهل من رأيك أن هذا ..

فأسرع يونجي يقول :

- انني لا أرى شيئا ، او أفكر في شيء يتعلق بهذا الموضوع .. ان بعض الزملاء في الجامعة ، كانوا يفكرون ويدبرون .. فاختفوا تماما ، ولايعرف أحد عنهم شيئا . ان جنود الجنرال سيكي هم الذين يدخلون الجامعات ، ويقبضون على الذين يفكرون في هذه الاوضاع . انه لا يريد ان يخضع البلاد ونظمها الاجتماعية لافكار الطلبة والمراهقين ، ولهذا رأيت أن اعيش سعيدا بعيدا عن هذه المشاكل ..

فنظر « آى ـ وان » برهة الى وجه يونجي ، وقال :

- هل تعنى ان لديكم هنا ثوريين ؟

- صه ! لاتنطق بهذه الكلمة هنا .. ان مجرد النطق بها قد يؤدى بنا جميعا الى المنفى ، انني لا احب الحديث في مثل هذه الشئون .. حسبي أن أقوم بعملي كما ينبغي

وانكب يونجي على مكتبه يعمل .. وظل « آى ـ وان » برهة يفكر ويشعر بالندم لأنه لم يحاول في اليوم السابق ، ان ينفرد بـ «تاما» ويتحدث معها حديثا صريحا عن الحب والزواج . ويلوح أن سعادته في ذلك اليوم ، جعلته ينسى كل شيء . ومن ثم ، شعر أنه مضطر الى الالتفات نحو يونجي ليقول له في تردد وارتباك :

- يونجي ! ألا تستطيع .. ألا يمكنك ان تعاونني على رؤيتها .. اليوم ، انني أريد أن أراها لامر هام

فرفع يونجي رأسه بسرعة ، وقال :

- أتعنى « تاما » ؟ لقد امرها ابى ان تسجن نفسها في غرفتها ثلاثة ايام ..

وارتسم الفزع على وجه « آى ـ وان » وهو يتصور حرمانه من رؤية « تاما » ثلاثة ايام ، وتمتم في ذهول :

- ثلاثة أيام ؟!

- لقد حدث هذا من قبل ـ في الشتاء الماضي ـ عندما اعلنت « تاما » عن رفضها الزواج بالجنرال سيكي ، قائلة انها سوف تطيع اباها وتتزوجه ، ولكنها سوف تقتل نفسها بعد ذلك . وكان ابى

يعلم في قرارة نفسه ، انها سوف تفعل هذا حقا .. ومن ثم استبد به الغضب ، وامرها ان تسجن نفسها ثلاثة ايام في غرفتها

فهتف « آى ـ وان » قائلا :

- اكان ذلك عندما قلت لى ان « تاما » متوعكة الصحة ؟

- اجل .. وان «تاما» عادة لا تعصى اباها في المسائل البسيطة ، أما المسائل التى تتعلق بحياتها الخاصة ، كالزواج .. فانها تصر على ان يكون لها رأيها الخاص فيها ..

وبعد فترة من الصمت ، عاد « آى ـ وان » يقول :

- الا ترى ان في مقدورى رؤية « تاما » بطريقة ما ؟

فحملق يونجي في وجهه وقال :

- ماذا تقول ؟

- لابد لى ان اراها ..

- لماذا ؟..

ولم يجب « آى ـ وان » وانما اعلن عن ذات قلبه بالدماء الحارة المتصاعدة الى وجهه .. وادرك يونجي الحقيقة ، فقال مضطربا :

- انك .. انك في الحقيقة لا .. لا ..

- بل انني متأكد من صدق شعوري ..

وفغر يونجي فمه ، ثم ضحك فجأة .. فقال له «آى ـ وان » :

- لماذا تضحك ؟

- هذا مضحك .. عجيب .. لقد أصبح بيتنا عش غرام .. أولا اخى اكيو ، ثم « تاما » .. وانت .. كل هذا وابى لا يدرى شيئا !

- ليس في هذا ما يثير الضحك !

- حسنا .. حسنا .! اذا اردت ان تجعل ابى يتعجل زواج « تاما » بالجنرال سيكي ، فحاول ان تراها على انفراد !

ولما جلسوا جميعا لتناول العشاء ، كالمعتاد في كل ليلة ، احس « آى ـ وان » أن كل شيء حوله قد غدا مختلفا ، مقبضا ، بسبب غياب « تاما » . وكان السكون يخيم عليهم جميعا ، كأنما يشعرون هم ايضا بأن « تاما » هي روح المكان وزهرته العاطرة . وفيما كان

آكيو يهم بالنهوض ، قال له والده :

ــ هل فرغت من الحساب الشهرى يا آكيو ؟

فقال اكيو بهدوئه المعتاد ، وكآبته المألوفة :

ــ أجل يا ابى ..

ــ حسنا جدا ..

وبعد انصراف آكيو ، ووالدته ، قال المستر موراكى لابنه بونجى الذى تعود الجلوس بعد العشاء ليتبادل الحديث مع « آى ــ وان »:

ــ بونجى .. انصرف الان لانى اريد ان اتحدث على انفراد مع « آى ــ وان » لقد وصلتنى رسالة من ابيه ..

وجفل بونجى قليلا ، ونظر الى « آى ــ وان » فى ارتباك ، ولكنه لم يستطع الا ان ينحنى لابيه ، ثم ينصرف فى هدوء ..

وبعد أن خيم الصمت على الغرفة فترة غير وجيزة ، قال المستر موراكى بصوته الهادىء البطىء ، وهو يقلب الجمر فى المدفأة بالملقاط الحديدى :

ــ ان والدك مسرور بما احرزت من تقدم فى اعمالك هنا .. وكنت قد قلت له أنك تؤدى واجباتك على خير وجه ..

ــ شكرا يا سيدى ..

واستطرد المستر موراكى فى حديثه قائلا :

ــ وقد كتب والدك يقول ايضا ان الحالة مستتبة فى الصين ، وان العناصر الثورية قد قضى عليها تماما ، وان الشيوعيين قد طردوا الى الجبال

ولم يجب « آى ــ وان » بشىء ، فاردف العجوز يقول :

ــ يجب ان يسود النظام دائما .. وبدون هذا النظام والاستقرار لا يمكن لامة ان تتقدم . وهذا ما ينبغى ان يعرفه الشبان .. ان تقدم الامم لا يكون بمجرد الرغبات والنزوات وحب الظهور والجرى وراء الزعامات ...

وصمت المستر موراكى فجأة ، ثم عاد ليقول :

ــ وبما انك قد احسنت العمل هنا يا « آى ــ وان » وعرفت كل ما يمكن أن تعرفه من شئون الاستيراد والتصدير فى شركتنا باجاراكى ، فقد قررت ان ارسل بك الى يوكوهاما لتساعد ابنى

سيو فى ادارته لفرع الشركة هناك . لقد آن لك ان تستكمل دراستك للجزء الباقى من اعمالنا .. وعدا هذا فان فى يوكوهاما جامعة خاصة يمكنك ان تتم فيها دراستك العالية . ولن تقيم فى بيت سيو ؛ لانه متزوج .. وانما ستقيم فى دار الشباب حيث يعيش الكتبة العزاب !

وهمس « آى ــ وان » قائلا :

ــ حسنا يا سيدى ..

ولكنه كان يتمنى لو استطاع ان يصيح بأعلى صوته قائلا :

« اننى أعرف غرضك الحقيقى. .انك تريد أن تبعدنى عن «تاما» ولكن لماذا ترفض ان تتزوج ! »

ولم يستطع بطبيعة الحال ان يلفظ بكلمة تعبر عن افكاره هذه ، ومن ثم استطرد المستر موراكى يقول :

ــ ولما كانت عادتى ان انفذ فورا ما يستقر عليه رايى ، فانك سوف تسافر الى يوكوهاما غدا . ومن المصادفات الطيبة ان اكيو سوف يسافر ليوكوهاما ايضا غدا فى رحلته الشهرية ليتبادل الراى مع أخيه فى شئون العمل .. هل سبق لك ان ركبت الطائرة ؟

ــ لا يا سيدى

ــ آه ! اذن سوف يكون لك حظ ركوب الطائرات غدا لاول مرة.. ان الطائرات اليابانية ممتازة ، وستكون الرحلة ممتعة

واومأ العجوز براسه هذه الايماءة التى تدل على ان المحادثة انتهت . ورأى « آى ــ وان » ان يعرب له عن شكره على نحو ما . ولكن الكلمات وقفت فى حلقه ، فلم يستطع الا ان يقول وهو ينهض للانصراف :

ــ طابت ليلتك يا سيدى ..

ــ طابت ليلتك يا ولدى ..

ورأى بونجى فى انتظاره خارج الغرفة ليقول له :

ــ ماذا قال لك ؟!

ــ قال ان على السفر الى يوكوهاما غدا ..

ووقف الشابان يتبادلان النظر فى صمت . ثم قال بونجى اخيرا :

ــ كنت أتوقع شيئا من هذا القبيل .. لقد كان كل شىء فى جو

البيت يوحى اليوم بأن أبى غاضب ، وانه سيتخذ اجراء ما ..
ولم يجب « آى ـ وان » بشىء . ومن ثم أردف بونجى قائلا :
ـ ماذا ستفعل الان ؟
ـ لا ادرى .. انتى لا استطيع ان آوى الى فراشى ..!
ـ ان المطر يتساقط ، ولولا هذا لخرجنا نتمشى قليلا ..
ـ ان المطر لن يهمنى ..

وكان « آى ـ وان » يشعر بالالم يعتصر قلبه ، كلما فكر فى انه سيسافر قبل ان يرى « تاما » . وقال بونجى :
ـ هلم نرتدى معاطف المطر ..

وخرجا معا يسيران فى اتجاه معين ، لم يسبق لـ « آى ـ وان » ان سار فيه .. حتى اذا بلغا بيتا صغيرا فى ضاحية المدينة ، توقف بونجى وقال مشيرا اليه :
هذا هو بيت آكيو يا « آى ـ وان »
ـ بيت آكيو ؟..
ـ اجل .. حيث تعيش سيومى .. اتحب ان ندخل ؟
ـ أترى هذا ؟
ـ لماذا لا ؟.. ان علاقتى بسيومى طيبة جدا .. بل ان امى وتاما كثيرا ما يزورانها من وراء أبى .. انها سيدة لطيفة طيبة جديرة بحب آكيو لها ..

وادرك « آى ـ وان » ان صاحبه لم يكن مبالغا فى حديثه عن سيومى حين رآها تستقبلهما باسمة فى ترحاب . وكانت سيدة قصيرة القامة ، بدينة ، ضاحكة الوجه ، خفيفة الحركة .. وقد وجد آكيو جالسا على الحصير فى غرفة كبيرة بجوار ادوات الشاى ، يقرا صحيفة المساء . وكان آكيو الجالس فى بيته الخاص ، يختلف اشد الاختلاف عن آكيو الصامت المكتئب الذى قلما تنفرج شفتاه عن الابتسام . لقد كان آكيو فى بيته لا يكاد يكف عن الحديث معهما والابتسام لهما ، ومداعبة سيومى .. وكان هادئا فى حديثه ، حتى وهو يتحدث عن الحرب قائلا انها شىء سخيف يدل على الحماقة البشرية ، وقد ردت سيومى على حديثه عن الحرب ، وهى تقدم الشاى للشابين قائلة :

ـ انى لا ادرى لماذا يحل الناس مشاكلهم بالحرب رغم وجود وسائل اخرى كثيرة غيرها ..
ثم اردفت قائلة :
ـ أرجوكم أن تتحدثوا عن موضوع آخر غير الحرب .. فليس ابغض الى من الحديث عنها !

ولما انصرف الشابان قال « آى ـ وان » لبونجى فى دهشة :
ـ انها سيدة فاضلة كريمة .. وانه لعار ان يقاطعها والدك على هذا النحو !

فقال بونجى موافقا :
ـ اجل .. ولكن ، ماذا يمكننا ان نفعل ؟ انها كريمة فاضلة حقا ، ولكن ليس مقدرا لها ان تتزوج آكيو ..!

فقال « آى ـ وان » مندهشا :
ـ هل تعتقد ان كل انسان مقدر عليه ان يتزوج فتاة معينة !
ـ آه .. طبعا ، طبعا .. ان امى تقول هذا ، لا شأن للحب بهذا الموضوع لان نجم كل انسان هو الذى يحدد نوع المراة التى ستكون زوجته . وقد اخطأ اخى آكيو لانه رفض الزواج من الفتاة المقدرة له !
ـ اتعرف من تكون ؟
ـ نعم .. انها ابنة صديق لابى .. ولكن آكيو رفض ان يتزوجها، ويقول ابى ان تمرد آكيو على القدر سوف يجلب النحس عليه يوما !

وعاد « آى ـ وان » الى البيت ، واوى الى فراشه .. ولكنه لم يستطع ان ينام . لقد اخذ يفكر فى « تاما » وفى سفره قبل ان يراها .. وفجاة قال لنفسه :
« ولماذا لا أراها ؟ »
ثم انتصب جالسا فى فراشه ، واردف قائلا لنفسه :
ـ نعم .. لماذا لا اراها ؟ انى لن اشعر بالراحة قط اذا لم ارها قبل السفر

واستبدت به الرغبة لرؤيتها .. وكان يعرف مكان غرفتها ، انها

في الجانب الآخر من البيت .. بعد غرفة والديها . ويعرف ايضا ان المستر موراكي لايطيق هواء الليل ، قائلا انه سام ومضر .. ومن ثم هو يحرص على اغلاق الحواجز المؤدية الى الحديقة ، أما «تاما» فقد قالت ذات مرة انها لا تشبع من هواء الليل ، ولهذا فهي تترك الحواجز مفتوحة في ليال كثيرة ..

وكان يعرف ايضا ان غرفتها تقع في مواجهه الشلالات الصناعية ذات الخرير العذب .. في مواجهتها تماما . وكانت قد قالت ذات مرة ان اباها طلب منها في عيد ميلادها الماضي ، أن تحددالهديةالتي تريدها .. فقالت انها تريد الاقامة في الغرفة المواجهة للشلالات حتى تنام وتصحو على خرير المياه وهي تتساقط على الصخور !

وخطر ببال «آي ـ وان» أن في مقدوره أن يهتدي الى غرفة «تاما» عن طريق خرير المياه المتساقطة أمامها .. فماذا عليه لو انه سار في ظلام الحديقة ، وتحسس طريقه الى غرفتها ؟..

لماذا لا ؟!..

الم يستطع آكيو ان يصر على رغباته ، وان ينال مايريد ؟ فلماذا يتردد هو ؟ ونهض من فراشه ، وتقدم الى حديقته الخاصة .. ثم دلف منها الى الحديقة العامة ، وسار في خطوات حذرة ، مطمئنا الى أن أحدا لن يراه في ذلك الظلام الدامس . وبعد أن تجاوز غرفة المستر موراكي ، واطمأن الى اغلاق حواجزها المطلة على الحديقة ، سار نحو الشلالات حتى لمس بيده مياهها ، ثم استدار ومشى في خط مستقيم الى ان لمست يده سياج الشرفة المؤدية الى غرفة «تاما» . وهناك قبع لحظات يرهف السمع .. واستطاع اخيرا ان يسمع زفرة حرى ، وصوت يد تلقى على الحصير .. آه لعلها نائمة ، أو لعلها تحلم اثناء نومها . ولكن لا .. انه يسمعها وهي تتنهد مرة اخرى بصوت يدل على انها في تمام اليقظة

وطرق بأصبعه المعقوفة على الحاجز في حذر شديد ، ثم تريث .. وعاد يطرق مرة اخرى بعد ان اطمأن الى ان احدا خارج الغرفة لم يسمعه . ولمح من وراء الحاجز الشفاف خيالها وهي تنهض ، وتلتف بثوبها ، ثم ترهف السمع .. وخشي ان يستبد بها الخوف ، فهمس قائلا :

«تاما» ! ..

وسرعان ما انزلق الحاجز ، ثم بدت «تاما» راكعة امامه ، تقول في همس :

ـ «آي ـ وان» ؟!

فقال متوسلا :

ـ «تاما» .. صفحا .. انني سأسافر الى يوكوهاما غداصباحا .. ولا ادري متى سأعود يا «تاما» .. وكان يونجي قد اخبرني ان اباك غاضب منك ، وامرك بالتزام غرفتك ثلاثة أيام . انني لم أستطع ان أسافر دون أن أراك !

ـ ولكن .. ولكن ابي سوف يعيدك الى الصين لو شاهدك هكذا

ـ انه لن يشاهدني .. اطمئني .. «تاما» .. أرجوك أن تساعديني ..

ـ أساعدك ؟..

ـ لا تكوني يابانية يا «تاما» .. وانما كوني انت فقط ـ كما سأكون انا ـ لاتدعي التقاليد تملأ حياتنا بؤسا .. لقد كنا سعيدين امس .. امس فقط .. أليس كذلك ؟!

ـ أجل يا «آي ـ وان» كنا سعيدين حقا ..

ـ «تاما» .. لقد ذهبت الليلة مع يونجي لزيارة اكيو .. اكيو وسيومي ، ولشد ما أنا معجب بآكيو يا «تاما» .. انه لا يدع احدا يتدخل في حياته الخاصة . نعم يجب على الناس ان يتدرعوا بالشجاعة ، ماداموا على حق ..

وقالت «تاما» هامسة :

ـ انني .. انني لا ادري .. لقد فاجأتني يا «آي ـ وان»

ـ اقتربي يا «تاما» .. دعيني المس يدك .. لا تنسي أني سأرحل غدا ..

ورآها تطفىء القنديل الصغير في الغرفة ، ثم تقول وهي تضع يدها في يده :

ـ اخشى ان يرانا احد .. ارجوك يا «آي ـ وان» . لو شاهدنا احد ، فسوف يكون مصيري رهيبا ..

وكان «آي ـ وان» يعرف هذا ، حتى في الصين . كان يعر -

ان الفتاة التي تضبط متلبسة بمقابلة شاب غريب عنها ليلا يكون الموت مصيرها !

وهمس قائلا :

ــ انني لن امكث هنا طويلا يا « تاما » .. اريد فقط أن اتحدث معك بشأن الجنرال سيكي .. انك لن توافقي على الزواج به .. اليس كذلك ؟

فقالت في حزم :

ــ ابدا .. !!

ــ آه .. لقد اسعدتني يا « تاما » . لسوف اعود يوما .. حتما

ــ وسوف تجدني في انتظارك يا « آي ــ وان »

ــ اجل يا « تاما » .. لا تتزوجي احدا غيري .. تزوجيني انا فقط !

وسمعها تهمس في اذنه قائلة :

ــ لن اتزوج احدا غيرك ..!

واحس بالاختناق من فرط السعادة ، ولكنه قال :

ــ اترين هذا الظلام الذي يشملنا .. انه كستارة خاصة لنا !

ــ انه روح طيبة ارسلتها السماء من اجلنا ..

ــ اتسمحين لي بالكتابة اليك يا « تاما » .. ان لدى الكثير مما اريد ان اقوله لك ولكن .. لا .. كيف ارسل خطاباتي اليك ؟

ــ أرسلها الى سيومي ، وسوف تحتفظ بها من اجلي حتى أذهب لزيارتها ..

فهتف في سعادة بالغة :

ــ آه ! ما اجمل هذا .. ان ذلك لم يخطر ببالي وانا ازورها ، ولكن الاقدار ، كما يبدو تحابينا ..

فقالت بجد ووقار :

ــ اجل يا « آي ــ وان » .. انها الاقدار .. انها معنا ..

واحس بالرغبة في البكاء وهو يقول :

ــ انها معنا يا « تاما » لاننا مخلصان في حبنا .. لان الهدف من هذا الحب شريف ومشروع ..

الفصـل التاسـع

المأساة ...

[ر]كب « آي ــ وان » الطـائرة من ناجازاكي مع آكيو . وكانت [ط]ائرة ركاب كبيرة ذات ثلاثة محـركات . وقد قال آكيو انهم سيركبون طائرة اخرى صـغيرة بعد عبـورهم البحر . ومن نافذة الطـائرة كان « آي ــ وان » يرى جزيرة كيوشـو في ناجازاكي . وهي الجـزيرة التي يقع فيها بيت المسـتر موراكي . وقال « آي ــ وان » لنفسـه وهو يرنو الى الارض الخضراء الممتدة تحته :

ــ هناك .. في مكان ما .. تقيم حبيبتي « تاما »

واشار آكيو الى سلسلة من القلاع والحصون والتحصـينات القوية على طول الشاطىء ، ثم قدم منظاره المكبر الى «آي ــ وان» وقال له :

ــ هل ترى هذه السلسلة من الاستحكامات القوية التي تواجه الشرق والجنوب والغرب !

ــ نعم .. ولكن يبدو أنكم تسرفون في هذه التحصينات ، وكأنكم تتوقعون أن يهاجمكم الاعداء من كل ناحية ؟

فضحك آكيو وقال :

ــ عندما يجد شعب صغير نفسـه ، بين شعوب قوية كثيرة العدد تعاديه ، فلا يسعه الا الاستعداد دائما للدفاع عن نفسه ..

ــ وهل تتوقعون أن تقوم حرب بينكم وبين غيركم ؟

فتردد آكيو برهة ثم قال :

ــ اعتقد هذا .. او على الاقل هذا ماتعلمناه دائما في المدارس ، وهو أن علينا أن نتوقع نشوب الحرب في اية لحظة

ولما ركبا الطائرة الاصغر حجما ، قال « آي ــ وان » ردا على

حديث آكيو بشأن الحرب :

ــ يلوح لى انكم تسرفون فى الاستعداد لحرب لم تقع بعد !

ــ هذه فلسفتنا ..

فسأله « آى ــ وان » فى فضول :

ــ هل تريد حربا يا آكيو ؟

فقال آكيو ، بعد ان تردد برهة ، كان خلالها يمسح زجاج نظارته :

ــ لا .. اننى لا اومن بالحروب . ولعل هذا يرجع الى انى اعتنق الديانة البوذية التى تحرم قتل الاحياء لاى سبب ..

ــ ولكن اذا جندتك الحكومة للقتال ؟

فتردد آكيو برهة ثم قال :

ــ اننى لم أستقر بعد على رأى فى هذا الشأن

وبدا على آكيو من الاضطراب والقلق ماجعل « آى ــ وان » يسرع الى القول معتذرا :

ــ لا داعى للقلق .. انه سؤال سخيف !

وساد الصمت بينهما بقية الرحلة .. وكان « آى ــ وان » مشغول الفكر بحبيبته ، يدير فى ذهنه العبارات التى سوف يكتبها اليها فى رسالته الاولى .. وكانت هذه الكلمات قد بدأت تتبلور فى ذهنه « عندما اخذت الطائرة تحلق بى فى السماء ، كنت اشعر انى تركت على عتبة غرفتك قلبى كطائر كسير الجناح .. »

وافاق من احلامه عندما هبطت الطائرة فى مطار يوكوهاما ..

وكانت يوكوهاما مدينة تجارية نابضة بالحياة العامرة الثائرة ، ولم تكن فيها منازل ذات حدائق غناء ، ولا مقاهٍ للراحة والهدوء .. وانما شوارع مزدحمة بالمارة ووسائل المواصلات ، وبيوت خفيضة كبيرة المساحة ، كلها دميمة الشكل ، مشيدة بالاسمنت ، ومن طابق واحد . ولما سأل « آى ــ وان » صاحبه آكيو عن السر فى هذا ، قال له :

ــ انها بيوت مضادة للزلازل .. فقد حدث منذ عهد قريب زلزال هدم كل منازل المدينة ومنشآتها .. ولكننا معشر اليابانيين لا نعرف اليأس ، فعدنا ننشئها من جديد .. ولكن حرصنا هذه

المرة على ان تكون جميع البيوت والمنشآت ذات طابق واحد ، ومن الاسمنت المسلح ، وعلى مساحة كبيرة ..

وكانت ادارة شركة «موراكى واولاده» تقوم فى بناء من هذا الطراز الدميم الشكل . ودخل « آى ــ وان » مع آكيو الى غرفة الاستقبال التابعة لمدير ذلك الفرع ، سيو ، واسرعت السكرتيرة اليابانية ، وكانت سيدة قصيرة دميمة ذات نظارة سميكة ، تعلن قدومهما الى المدير سيو موراكى ..

وبعد لحظات من الانتظار ، شاهد « آى ــ وان » رجلا فى نحو الثامنة والثلاثين ، بدينا قصيرا ، ملوح البشرة ، اصلع الراس ، يخرج من غرفة مكتبه ليودع عميلا امريكيا كان معه .. وكان يقول له فى تلك اللحظة :

ــ حسنا ياموراكى ! اتفقنا .. ولكن اية خسارة او تكسير سوف تتحملها شركتكم ..

فقال سيو بصوت مرتفع واضح :

ــ لن تحدث اية خسائر اثناء الشحن .. اطمئن

وبعد انصراف العميل الامريكى ، اتجه سيو الى اخيه آكيو ، وقال له باسما :

ــ هاه ! كيف حالك ؟

ورد آكيو قائلا وهو ينهض فى احترام :

ــ بخير .. هذا هو « آى ــ وان »

وابتسم سيو مرة اخرى ، وقال :

ــ هاه ! لقد كتب ابى عنك ، ويبدو انه شديد الاعجاب بك .. تفضلا بالدخول الى المكتب ..

وفى غرفة المكتب ، قال سيو لاخيه آكيو ، بعد أن رحب مرة اخرى « باى ــ وان » :

ــ كيف حال الاسرة جميعا يا آكيو ؟

فنظر آكيو بطرف عينه الى « آى ــ وان » ثم قال فى تحفظ :

ــ بخير ..

وتناول « آى ــ وان » احدى الصحف ، وتظاهر بالانشغال

قراءتها حتى شيح للاخوين ان يتحدثان بحرية .. وفى اثناء حديث سيو مع اخيه عن شئون الاسرة ، سمعه « آى ــ وان » يقول :

ــ ولهــذا فان ابى غاضب عليها جــدا ، وقد قرر ان يقول للجنرال سيكى ان الزواج قد يتم فى اى يوم ..

واحس « آى ــ وان » عنــدئذ بالارض تميــد تحت قدميه ، فوضع الصحيفة فى اعياء وقد ازداد وجهه شحوبا ، ويبدو ان سيو لاحظ ما طرا عليه من اعياء ، فقال له :

ــ يمكنك ان تذهب الى غرفتك الخاصة اولا لتستريح ..

ــ ارجو هذا .. وشكرا ..

ــ لا داعى لان تتعجل .. تناول طعامك ، واسترح بقية اليوم . ان لدينا اشغالا كثيرة ، ويمكنك ان تستلم عملك غدا صباحا .. وتاكد ان العمل هنا موفور لان الكنوز تنهال علينا من جميع انحاء الصــين ..

وتساءل « آى ــ وان » فى نفســه : « ما معنى هذا ؟ »

وصحبته السكرتيرة الدميمة الشــكل الى بناء قريب من مركز الادارة ، حيث يقيم الكتبة والموظفون العزاب . وكان ايضا بنــاء ضــد الزلازل ، مكونا من طابق واحــد ، يحتوى على عشرات من الغرف ..

وتناول احد الكتبة المشرفين على ادارة دار الاقامة مفتـــاحا ، وسمعه يقول له :

ــ الغرفة الحادية والخمسين ..

ووجد فى تلك الغرفة سريرا ، ومقعدا ، ومكتبا ، ودورة ميــاه صغيرة ملحقة بها ، وكانت الجدران والارضيـــة مشيدة كلهــا بالاســمنت ..

وبعد ان جلس برهة مـــستغرقا فى التفكير ، وثب الى مكتبه وراح يكتب الى « تاما » خطابا كان يرجو ان يصل الى ناجازاكى فى نفس الطائرة التى جاءت به . وقد استهل خطابه بقوله :

« تاما .. لقد سمعت خبرا مزعجا اشاع فى نفسى الاضطراب »

ثم راح يكتب لها بحرارة قائلا ان عليها ان تلتمس اى مخرج ، وانه فى انتظار ردها لانه لن يســـتطيع ان يعرف طعم النــوم او

الراحة او الاكل حتى يطمئن ..

ونهض فى الصباح على ضــحكات زملائه المقيمين فى الغــرفات الاخرى ، ولم يلبث ان اغتسل ، وارتدى ملابســه ، وتناول طعام الافطار فى المطعم الملحق بالدار ، ثم مضى الى مكتب سيو ، حيث وقف ببابه مترددا عندما راى ســـيو منكبا على مكتبه . واخيرا سعل سعلة خفيفة .. فرفع سيو راسه ، وابتسم له فى رفق ، ثم قال له :

ــ سعدت صباحا .. ارجو اذا سمحت ان تمضى مع سكرتيرتى لكى تسلمك عملك ومكتبك الخاص . وهـــذه هى قوائم الســلع الواردة الينا اليوم ، ارجو ان تضاهيها بما ستحمله السفن الينــا من الصين اليوم .. اذا وجدت اى اختلاف فاطلب منى مساعدتك

وشكره « آى ــ وان » ، وسار مع الســكرتيرة الى غرفة كان بها نحو ثمانية من الكتبة الموظفين .. لم يحاول احدهم ان يرفع راسه من عمله ، لكى يرى هذا الزميل الجديد . ولــكن هــذا لم يكن يمنعهم من اختلاس النظر اليه من وراء نظاراتهم الســميكة ، بين الحين والآخر ..

وجلس هو مــستغرقا فى افكاره برهة .. ولكنه لم يلبث ان افاق على صوت رجل واقف فى باب المكتب ، يقول له فى رفق :

ــ آه .. هل انت المستر « آى ــ وان » الموظف الجديد ؟

ــ اجل ..

ــ هل استلمت عملك ؟

وادرك « آى ــ وان » من هذه العبارة ان عليه ان يقوم بعمله مادام قد استلمه ؛ فاضطرب وجهه خجلا ، وانكب على عمله ..

ووصل خطاب « تاما » بعد ثلاثة ايام . وقد قالت له فيه : « علينا ان نتذرع بالصبر ، ولا شــك اننــا لن ننــال الا ما قدرته الحياة علينا »

وفى رسالة اخرى ، قالت له ان امها تبـــذل جهدها لتأجيل الشروع فى زواجها من الجنرال سيكى ، وان جعبة امها فى التماس

الاعذار ، وابتكار اسباب التأجيل ، لم تفرغ بعد !

واطمـأن « آى ـ وان » بعض الشيء ، حين ايقن ان « تاما » لا تقف بمفردها فى هذه المعركة ..

وظل طيلة عام كامل ، وهو يرسل اليها الخطابات بانتظام ، وكانت رسائلها اليه دائما ذات طابع واحد : قصيرة ، ورقيقة ، وخالية من الاستطراد . وكانت تطالبه فيها دائما ان يتذرع بالصبر ، وان يثق تماما ان الانسان لا يمكن ان ينال الا ما تريده الاقدار له !

وكان ذلك العام الذى امضاه « آى ـ وان » فى يوكوهاما من اطول واقسى الاعوام التى مرت فى حياته . ولم يكن يضنيه فقط شوقه الدائم الى « تاما » ، وانما كان يضنيه ويحيره ايضا ذلك السيل الذى لا ينقطع من كنوز بلاده الذى كان ينهال على تجار اليابان ، وشركات الاستيراد والتصدير

وكان رغم قيامه بعمله على الوجه الاكمل ، لا يملك نفسه من التساؤل : لماذا تفرط بلاده فى هذه الكنوز التى لا تقدر بثمن ؟! هل الحكومة هى التى تجمعها وتبيعها للشركات اليابانية من اجل الحصول على حاجتها من المال ، أو أن الحاميات اليابانية الموجودة فى شمالى الصين هى التى تنهب هذه الكنوز وترسلها الى الشركات اليابانية ؟ .

وفى ذات يوم ، عاد الى غرفته فى دار الاقامة بعد ان فرغ من اعماله ، فاذا هو يجد صديقه يونجى موراكى راقدا فى فراشه !

وتسمر فى مكانه برهة ، وهو يرى يونجى للمرة الأولى بعد عام كامل .. وكان قد فوجىء بما عليه من دمامة تشكل ملفتة للنظر .. انه لم يكن يرى هذه الدمامة من قبل .. اما الآن ، فانه يراها واضحة وكأن المسكين « بهلوان » فى سيرك كل مهمته ان يضحك الناس من دمامته !

لقد خيل اليه أنه يشاهد يونجى لأول مرة ، بقامته القصيرة ، وساقيه المقوستين ، وشعره الشائك ، ووجه الاسمر الشاحب ، وانفه العريض المفلطح ، وعينيه الصغيرتين ، وفمه الواسع ،

واسنانه البارزة ، مما جعله اقرب الى القرد منه الى مخلوق آدمى !

ويلوح ان يونجى احس به ، اذ انتصب جالسا ، وقال هاتفا :

ـ اوه .. هل حضرت يا « آى ـ وان » ؟

ـ لماذا جئت ؟ ...

فتثاءب يونجى ، كأنما استيقظ لتوه من النوم ، وقال :

ـ لا ادرى .. لقد جئت انا وآكيو بعد ان صدرت الاوامر الينا لنقدم انفسنا الى ادارة التجنيد العسكرى فى طوكيو . وقد وصلنا الى يوكوهاما منذ نصف ساعة ، فقررت ان آتى اليك لنلهو معا بعض الوقت قبل ان نواصل السفر ..

ـ وأين آكيو ؟

فضحك يونجى كعادته ، وقال :

ـ لا ادرى .. لقد جاءت معه سيومى .. ولعلهما الآن يتفرجان على بركان « فوتجى ـ سان » فى ضوء القمر

ثم اردف قائلا بعد ضحكة اخرى :

ـ انهما يحبان « فوتجى ـ سان » ، وقد اعتادا ان يصعدا اليه فى كل صيف مرة ..

ـ ولماذا استدعتكما ادارة التجنيد فى طوكيو ؟

ـ هذا ما سوف اسأل السلطات المسئولة عنه .. ان كبار العسكريين يحبون ان يستدعوا الاحتياطى مرة كل عام ، ليطمئنوا على لياقتهم العسكرية .. انهم لا يفكرون الا فى الحرب فقط . والان .. ما رايك لو قضينا السهرة فى ملهى ليلى ؟

ولم يسع « آى ـ وان » الا ان يقبل ..

وبعد ان عادا فى منتصف الليل ، قال « آى ـ وان » ليونجى :

ـ يونجى .. ماهى اخبار « تاما » ؟

ـ كنت انتظر منك هذا السؤال .. لقد اعطتنى خطابا ، وطلبت منى ان اسلمه اليك ، بعد ان اذكر لك ما لدى من انباء عنها ..

وتناول من جيبه مظروفا صغيرا ، وقال وهو يقدمه الى « آى ـ وان » :

ـ ان آخر الانباء عنها ، فى ايجاز ، هى ان ابى قد قرر اخيرا ان

لتزوج الجنرال سيكى فى خلال هذا الشهر .. !

وانتزع « آى ــ وان » الرسالة وفضها بيدين مرتعدتين ، وقد شحب وجهه ، واحس كان اصابع رهيبة تعتصر قلبه !

وقرا فى الرسالة ما يلى :

« آى ــ وان » .. قلت لك مرة اننى لن اتزوج احدا غيرك .. ولكن ابى اخبرنى ان الحرب اوشكت ان تنشب بيننا وبين الصين. وهذا يقلب كل شىء راسا على عقب .. حتى والدتى اصبحت تقول ان واجبى نحو وطنى والامبراطور ، يحتم على الزواج من الجنرال سيكى الذى سيمضى ليحارب فى سبيلنا جميعا . ونحن اليابانيين قد نشأنا على تقديس الواجب .. هكذا شاءت الاقدار : « تاما »

وانعقد لسان « آى ــ وان » برهة عن الحديث ، ولكنه استطاع اخيرا ان يقول بصوت مختنق :

ــ ايهما اسرع فى الوصول الى ناجازاكى .. القطار ام الطائرة ؟ !

ــ لماذا ؟ ..

ــ لانى اريد رؤية « تاما » فى اسرع وقت ..

فهز يونجى كتفيه ، وقال :

ــ اننى مسافر غدا لاسجل اسمى .. ويمكننى ان احمل اليها خطابا منك اذا شئت . وهذا فى رايى اضمن واجدى ؛ لانك لاتستطيع ان تنفرد بـ « تاما » حتى لو سافرت اليها ..

فعانق « آى ــ وان » صديقه وشكره بحرارة ، فابتسم الشاب، وقال :

ــ الواقع اننى افضل كثيرا ان تتزوج انت اختى ، على ان تقضى حياتها الناضرة مع ذلك العجوز المتعجرف .. دعنى استغرق فى النوم الآن ، لان على ان اصحو مبكرا ..

وكتب « آى ــ وان » رسالة الى « تاما » قال فيها انه لا يستطيع باية حال من الاحوال ان يجعل هذه الخلافات بين بلديهما تؤثر فى حياته ، وتقضى على سعادته ، وان هذه الحرب التى تتحدث الصحف عنها ليست الا مناوشات بسيطة ، لن تلبث ان تنتهى بالصلح ..

وفى الصباح ، افترق الصديقان ، فذهب « آى ــ وان » الى ادارة فرع الشركة ، ومضى يونجى ليلحق بقطار التاسعة المسافر

الى طوكيو ..

وظل فى مكتبه بالادارة نحو ساعة ، وهو مستغرق فى التفكير ، حتى سمع فجاة صوت انسان يبكى ويصيح . وادرك فورا انه يونجى ، فاسرع اليه ليراه فى حالة يرثى لها من الحزن والبكاء . فلما سأله عما الم به ، قال يونجى وهو يشهق :

ــ اين سيو .. اين سيو ؟

ــ اننى لم اره بعد .. ماذا حدث يايونجى ؟.. ماذا حدث ؟

وكان يونجى ممسكا بخطاب مفتوح فى يده ، فقدمه الى «آى ــ وان» وهو يقول باكيا :

ــ انه اخى آكيو .. آكيو .. اقرا هذا

واختطف « آى ــ وان » الخطاب ، وقرا فيه ما يلى :

« الى ابى ، وامى ، واخوتى .. لقد فكرت طويلا فيما انا مقدم عليه . اننى اعرف لماذا استدعتنى الحكومة لتسجيل اسمى . انها تريد ان تبعث بى وبامثالى الى الصين لنحارب . ولكننى لا ارى سببا يدعونى لان اقتل اناسا ابرياء فى بلادهم . ومع ذلك فلو رفضت الذهاب فسوف اعتبر جبانا وخائنا . ومن ثم قررت ان اموت مع سومى فى فوهة بركان « فونجى ــ سان » . وعندما تقراون خطابى هذا ، نكون قد انتقلنا معا من هذه الحياة الى حياة اخرى .. »

وغمغم « آى ــ وان » فى دهشة وحزن :

ــ متى ؟ متى حدث هذا ؟

ــ عندما وصلت الى المحطة لاستلم تذكرة سفرى ، ناولنى الموظف هذا الخطاب ، وقال انه تركه لى . ولما قراته انفجرت باكيا ، ولكن احد الضباط الواقفين قال ــ بعد ان عرف الامر ــ ان آكيو خائن ، انه ليس من حقه ان يتصرف بحياته على هذا النحو !

وقال « آى ــ وان » بصوت خافت ، حين عاد يونجى الى البكاء بحرقة :

ــ وهل عرف سيو بالماساة ؟

ــ لا .. لم يعرف بعد .. اننى جئت لاخبره ..

ولما علم سيو بما حدث ، قال والدموع تملأ عينيه :

ـ كنت اعرف أن آكيو سيفعل هذا يوما .. لقد طالما قال لى انه يفضل ان يقتل نفسه ، على أن يقتل شخصا آخر بريئا ، وبلا مبرر معقول !

ثم اردف قائلا :

ـ عليك ان تمضى الى والدك يابونجى لتخبره بالماساة ..

فهز بونجى راسه ، وقال :

ـ انى لا استطيع .. لقد منحنى رئيسى هذه الساعات القليلة لاخبرك بالماساة .. وسوف امضى من طوكيو ـ كما علمت ـ الى منشوريا راسا حيث اصلها فى خلال ثلاثة ايام ، هذه هى الاوامر الاخيرة ..

ثم اردف قائلا بحزم :

ـ ويجب ان اطيع هذه الاوامر لانى يابانى مخلص

وقال « آى ـ وان » مشفقا :

ـ اننى اقدر مشاعرك يابونجى ..

ثم خطرت بباله فكرة سريعة ، جعلته يلتفت الى سيو ، ويقول :

ـ اذا اردت ان تثق بى وتجعلنى اذهب الى ابيك ، بدلا من بونجى ، فانى على استعداد لهذا ..

وكان يشعر فى تلك اللحظة ، ان يد الاقدار تحرك خيوط مصير حبه لـ « تاما » ..

وقال سيو بعد برهة صمت

ـ اذهب اذن .. واطلب من أبى ألا يشتد غضبه على آكيو

وهكذا فتحت هذه الماساة الطريق لـ « آى ـ وان » نحو « تاما » من جديد

دماء الحب

كانت راكعة على ركبتيها بهدوء ، وراء والدها ، عندما اخذ « آى ـ وان » يذكر لهم ما حدث . وكان المستر موراكى قد استقبله اولا على انفراد . فلما علم بالامر ، استدعى زوجته وابنته ، ليسمعا ايضا ما حدث . وفيما كان المستر موراكى يقرأ خطاب آكيو ، كانت الدموع تنهمر من عينى المستر موراكى فى صمت وسكون

واخيرا قال الوالد بهدوء :

ـ لن نقيم الحداد على ابن عاق لابيه ولامبراطوره .. ولا أحب ان يذكر احد اسمه امامى بعد اليوم !

واردف قائلا ، بعد برهة صمت :

ـ هذا هو كل شيء .. اما انت يا « آى ـ وان » فلا شك انك تحتاج الى الراحة .. سوف تبيت ليلتك هنا قبل أن تعود الى عملك غدا

وقال « آى ـ وان » وقلبه يخفق بقوة :

ـ شكرا يا سيدى ..

انه يعرف الطريق الى غرفة « تاما » ليلا .. وانه يعرف ماذا سيقول لها بدلا من ان يكتب خطابا ، ويتركه لتقراه ..

وقالت الوالدة فى خضوع لزوجها :

ـ هل تسمح لنا بالانصراف ايها السيد ؟

وأوما المستر موراكى براسه . وحول « آى ـ وان » بصره بسرعة نحو « تاما » ، فرآها تنظر اليه بعينين دامعتين ، ولكنه لمح فى نظراتها الحب والتوسل ، فادرك انها تنتظره الليلة ..

وفى منتصف الليل ، وقف امام باب غرفتها المفضى الى الحديقة وكان القمر فى تلك الليلة ساطعا ، فحرص على ان يختفى وراء احد الاعمدة الخشبية التى تقوم عليها الشرفة .. وما كاد يتعثر بروق على الحاجز ، حتى انزلق بسرعة ، واذا « تاما » واقفة امامه وقد بدا وجهها فى ضوء القمر شاحبا ، ووضعت أصبعها على فمها ، وانساب عطرها الى انفه ، ثم الى قلبه .. وسمعها تهمس فى اذنه قائلة :

— هلم نقف فى ظلال الشرفة

وكان همسها ارق من رفرفة جناح طائر .. وتقدم معها نحو ظلال الشرفة ، ثم مد ذراعيه وضمها الى صدره بكل ما فى قلبه من حب وشوق ولهفة . وكانت تلك اول مرة يضم فيها فتاة الى صدره ، ويحس بجسمها ملتصقا بجسمه . وبقيا متعانقين برهة طويلة دون ان يتحركا ، واخيرا انفصلت عنه وهى تقول بانفاس لاهثة :

— تصور اننى كنت أنوى الا اراك ، أو القاك أبدا ، يا «آى-وان»!

— هذا هو المستحيل يا « تاما » .. لانك أينما ذهبت كنت ستجديننى امامك ..

— كيف .. كيف ؟

— انه الحب يا « تاما » ..

— ولكن الحرب ...

— لن تكون بينى وبينك ابدا يا « تاما »

— لا .. لا .. لا استطيع .. يجب ان اؤدى واجبى نحو ابى ووطنى ..

فهمس بحرارة قائلا :

— ليس هناك واجب يحتم عليك الزواج برجل عجوز تكرهينه .. هذه جناية وليست واجبا !

فقالت متوسلة :

— لا يا « آى — وان » .. ان كل شىء يتغير هنا فى حالة الحرب .. ان على الرجال أن يحاربوا ، وعلى النساء ان ينجبن الابناء ..

فقال معابسا :

— « تاما » ؟ أهذه آراء فتاة عصرية ؟ !

— لا .. ولكن ماذا فى وسعنا ان نفعل ؟

فضمها الى صدره مرة أخرى بقوة ، حتى شعر بقلبها يخفق مع قلبه ، ثم قال :

— سنهرب معا .. سنهرب الى مكان ما فى العالم ليست به حروب ، وليست فيه فوارق انسانية .. الى مكان نعيش فيه حبيبين وزوجين !

— ليس فى العالم مكان كهذا يا « آى — وان » !

— بل فيه .. عدينى فقط ألا تتزوجيه ، وسوف أدبر كل شىء من أجل سعادتنا

وعندئذ سمعا وقع اقدام خفيفة فى الحديقة ، وتكسر غصن شجرة ، فاستبد بهما الرعب ، وتعلق كل منهما بالآخر برهة . ولما رأت « تاما » والدها مقبلا فى ضوء القمر ، امسكت بذراع«آى-وان» وجذبته الى غرفتها ، واعادت الحاجز الى مكانه ، ووقفت معه وراءه كاتمة أنفاسها . وتقدم الوالد نحو الشلالات ، ثم سمعاه يتوقف برهة ويتنهد ، ثم اذا بخطواته تبتعد الى الجانب الاقصى من الحديقة ..

وقالت « تاما » فى خوف :

— انصرف الآن يا «آى — وان »

فقال وهو يقبل وجنتها العاطرة :

— عدينى ألا تتزوجى الجنرال العجوز ..

— أوه .. أرجوك .. أرجوك ..

— عدينى على الاقل أن تنتظرى حتى نعلم هل هى حرب حقيقية او مجرد مناوشات بسيطة

واحس بشفتيها الورديتين على خده وهى تقول :

— أعدك بهذا ..

وانفلت مسرعا الى غرفته ، وقلبه مفعم بالرضا ..

بعد أن تناول « آى — وان » طعام الافطار فى صباح اليوم التالى ،

مضى الى الغرفة التى خصصها المستر موراكى لاستقبال الضيوف . وجلس على مقعد فيها ينتظر رب البيت حتى يأتى ويزوده بالتعليمات الاخيرة قبل رحيله . ولم يلبث ان فوجىء بدخول المستر موراكى ، ومعه رجل كهل فى حلة عسكرية يابانية . وقد أدرك من النظـــرة الاولى أنه الجنرال سيكى ، غريمه اللدود فى مشروع الزواج بـ «تاما»

ويبدو أن المستر موراكى فوجىء بدوره حين رأى « آى ـ وان » .. ولكنه تمالك نفسه بسرعة وقال للجنرال :

ـ هذا هو « آى ـ وان » ، ابن صديقى المستر «واى ينج سين»

ثم قال لـ « آى ـ وان » :

ـ هذا صديقى الجنرال سيكى ..

وأومأ الجنرال برأسه فى ترفع للشاب الذى قال معتذرا للمستر موراكى :

ـ كنت على وشك الرحيل ياسيدى ..

وهنا قال له الجنرال بصوته الآمر :

ـ لا .. يمكنك أن تبقى معنا قليلا ..

◻

ودهش المستر موراكى، ولكنه لم يقل شيئا . وجلس «آى ـ وان» مضطربا على حافة المقعد ، وقد ازداد شعوره بالنفور من هذا الكهل القصير البدين الذى بدا وجهه الدميم فوق عنقه الغائر بين كتفيه ، كوجه سلحفاة عجوز !

وعاد الجنرال يقول له :

ـ انك قد تدلى الى بمعلومات مفيدة .. هل تعرف فروع بنك والدك المنتشرة فى اقليم منشوريا ؟

وقرر « آى ـ وان » فورا ألا يخبره بشىء ، ومن ثم قال :

ـ لا .. لا أعرف ..

ـ هذا عجيب ؟ ولكن لا أهمية لهذا الامر ، فان لـــدى المعلومات اللازمة فى مركز القيادة . وانما كنت أريــــد فقط أن أعرف بعض التفاصيل .. حسنا .. هل تعرف المسافة بين بيكنج وهاربين ؟

ـ لا .. لقد أمضيت معظم سنوات حياتى فى شنغهاى ..

ولاحظ « آى ـ وان » عرقا ينتفخ فى عنق الجنـــرال من فرط الحنق ، ولكن هذا لم يلبث أن هز كتفيه ، ثم التفت الى المستـــر

موراكى ، وقال له بلهجة آمرة :

ـ ليبق كل شىء على ما هو عليه .. انها لن تكون حربا حقيقية ، وانما مجرد حملة تأديبية للقضاء على الصينيين المتمردين . وهى لن تستغرق أكثر من ثلاثة أسابيع . ووقتى لن يتسع للزواج السريع، لانى سوف أسافر اليوم الى منشوريا . وعندما اعود ، سوف أظفر باجازة طويلة ..

ثم أردف قائلا ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة :

ـ واعتقد أنها ستكون أسعد اجازة فى حياتى ..

ولم يستطع « آى ـ وان » ان يحتمل منظر ذلك الرجل أكثر مما فعل ، فنهض واستأذن للانصراف .. ثم أسرع الى غرفته حيث وقف برهة أمامها ، وقد رأى أن عليه البحث عن « تاما » بأية وسيـــلة ليحدثها بما سمع ، ويؤكد لها ان الحرب المزعومة ، لن تكون حربا حقيقية ..

ومرت به خادمة تحمل اناء مليئـــا بالزهور ، فاستوقفها وقال بلهفة :

ـ اين « تاما ـ سان » !

فقالت الخادمة مندهشة :

ـ فى الشرفة الشرقية ياسيدى تنسق الازهار

وغامر بالذهاب اليها ، رغم أنه لم يكن قد دخل الى الغرفـــات الداخلية للبيت قبل ذلك . واستطاع ان يهتدى اليها حيث رآها فى شرفة مربعة صغيرة وراء المطبخ ، فقال لها وقد اطمأن الى أنهما منفردان :

ـ « تاما » ..

ـ أوه .. « آى ـ وان » كيف جئت ؟ .. ولماذا ؟

ـ انه رهيب .. فظيع ..

فقالت بهدوء وهى تعود الى تنسيق الزهور :

ـ نعم يا « آى ـ وان » .. انه فظيع الشكل .. لقد رأيته أمس فقط بعد أن وعدت ..

فقاطعها « آى ـ وان » قائلا بلهفة :

ـ لن تكون هناك حرب حقيقية بين بلدينا .. مجرد مناوشـــات

فقط ، لن تستمر اكثر من ثلاثة أسابيع . لقد سمعت سيكى يقول هذا الآن . وتأكدى ان رجالا مثل أبى لن يسمحوا بقيام حرب بين الصين واليابان .. ان لأبى نفوذا كبيرا .. وأموالا ..

وتوقف فجأة وقد شعر بالخجل من هذا الزهو .. وابتسمت « تاما » فى رفق وقالت بصوت مفرد :

— اذا لم يكن هناك حرب ، فلاشك أن الاوضاع سوف تتغير .. ولا اظن ان ابى سيستطيع ان يرغمنى على الزواج بهذا الرجل البغيض !

واسرع « آى — وان » يقول ، وقد رأى الخادمات قد بدأن يتجمعن بالقرب منهما :

— سوف اطلب يدك من أبيك بالطريقة التقليدية .. سأرسل اليه وسيط زواج محترفا ليتفاهم معه على كل شئ ..

ثم نظر طويلا فى عينيها ، وانحنى أمامها ، وانصرف ..

ولم يرها ، بعد ذلك ، حتى غادر البيت فى طريقه الى يوكوهاما ..

واعلنت الصحف أخيرا أنه لن تقوم الحرب فى منشوريا ، وان عصبة الامم تدخلت فى النزاع ، وأن « شيانج — كاى — تشيك » لايريد أن يدخل فى حرب دموية مع اليابان . وانتعشت من ثم آمال « آى — وان » ، وادرك أن أباه كان وراء هذه الحركة التى تدعو الى السلام بين الصين واليابان ..

وبدأ فى اتخاذ الخطوات العملية للزواج ، من « تاما » ، فأرسل اولا الى ابيه يستأذنه فى الموافقة على هذا الزواج ، ورد ابوه قائلا انه يوافق ويبارك هذا المشروع . ثم اتصل الشاب بوسيط محترف ، واتفق معه على الاجر المناسب . وكان الوسيط رجلا يابانيا عجوزا خبيرا بهذه الامور ، فوعد بالسفر فورا الى ناجازاكى ليقوم بدوره ، ثم يعود ..

وراح « آى — وان » ينتظر بفارغ الصبر .. ومرت الايام سريعة وهو ممزق النفس بين اليأس والرجاء ، ولكنه كان حريصا على القيام بعمله بكل ما وسعه من جهد واخلاص ، حتى أصبح موضع ثقة واعجاب الاخ الاكبر سيو

وفى اليوم الثامن عشر من الشهر التالى ، عاد ذات مساء الى غرفته ليرى الوسيط العجوز فى انتظاره . وعندئذ هتف قائلا حين رآه ينهض وينحنى تحية له :

— أين كنت ؟ وماذا فعلت ؟

فقال العجوز فى وقار :

— كنت أقوم بعملى .. وكان على أولا أن أبحث للجنرال سيكى عن زوجة مناسبة حتى أريحه من طريقك . وقد انتهزت فرصة لهفته على الزواج بأية فتاة حسناء فى ميعة الصبا ، واقترحت عليه أن يتزوج ابنة رجل موفور الثراء واسع النفوذ ..

— وماذا تم ؟ ..

— انتهينا من غريمك ، وخطب فتاة أخرى ..

— و « تاما » ؟ !

— أرغمت أباها للموافقة على زواجها بك ، حين قالت انها سوف تقتل نفسها اذا لم يقبل .. ثم شرعت فعلا فى الانتحار ..

وشحب وجه « آى — وان » وقال :

— وهل ؟ ..

— انتظر لحظة أيها الشاب .. لقد رأيتها بعينى هاتين تقطع شريان يدها اليمنى ، فانبثق الدم غزيرا .. ثم شرعت فى قطع شريان يدها اليسرى . وكان ذلك امامنا جميعا ، وعندئذ صاح بها والدها يأمرها بالتوقف قائلا انه يوافق على هذا الزواج ..

ولكن « آى — وان » عاد يصيح وقد ازداد فزعا

— و « تاما » ! ماذا حدث لها .. كيف حالها ؟

— انها بخير .. لقد أمكن انقاذها وتضميد جرحها ..

ثم أردف قائلا ، وهو يغمز بعينيه :

— لقد عرفت كيف تسكب دماءها من أجل الحب حتى تنتصر ..

وضحك « آى — وان » وقال :

— سوف أجزل لك العطاء أيها الشيطان العجوز .. !

انتصار الحب

عاش « آى ــ وان » فى شبه دوامة من السعادة واللهفة خــلال الايام التى سبقت حفلة الزفاف . وكان قد ذهب مع الوسيط الى المستر موراكى ، وقام باجراءات الخطبة رسميا ، واتفقا على كل شىء ، وحددا موعد الزفاف .. ولكن كان محرما عليه ان يرى «تاما» خلال الفترة التى تسبق هذا الموعد ..

وتم الزواج والزفاف فى أكبر فنادق المدينة . وشهده العظمــاء والاعيان وجميع أقارب العروس .. وكانت هى اثناء عقــد القران جالسة بجانبه ــ بين باقات الازهار ــ وقد زينت على الطريقــة اليابانية التقليدية ، اذ صبغ وجهها بالاصباغ الحمراء والبيضــاء حتى كاد الا يعرفها ..

وبعد ان تمت جميع المراسم التقليدية ؛ سمع الوسيط الذى كان عليه أن يشهد جميع الاجراءات حتى النهاية ، يقول له هامسا :

ــ تستطيع الآن أن تغير ملابسك وتمضى بعروسك .. ان السيارة واقفة أمام مدخل الفندق فى انتظاركما ..

ونهض « آى ــ وان » الى غرفته المحجوزة له فى الفندق ، وخلع ملابس الزفاف التقليدية ، وارتدى ملابس افرنجية كان قد أعدها لهذه المناسبة ، ثم خرج وتناول ذراع « تاما » ، وهبط معهــا الى مدخل الفندق ، والمدعوون وراءهما فى طابور طويل . ولما اقتربا من السيارة ، فتح احدهم بابها لهما ، فدخلاها ، وأغلق الباب .. وانطلقت بهما الى الجناح الذى حجزه « آى ــ وان » فى ذلك الفندق الجبلى عند العيون الساخنة التى سبق أن أمضيا فيها أسعد يوم فى حياتهما !

وكان قد قرر أن يمضى فى ذلك الفندق الاسبوع الاول من شهر العسل ..

وما ان أغلق عليهما باب السيارة ، حتى اخذها بين ذراعيه هاتفا:

ــ « تاما » ! !

ولما ضحكت ، أحس ان كل شىء فى الحياة يضحك معها ..

وقالت له ، وهى تقدم شفتيها الى شفتيه :

ــ هل نحن فى حلم يا « آى ــ وان » ؟

وقال بصوت مختنق من فرط السعادة :

ــ حدثينى يا « تاما » .. هل نحن زوجان حقا الآن ؟

فتعلقت به ، وقالت :

ــ أجل يا « آى ــ وان » .. !

وغابا معا فى قبلة طويلة ..

وفى غرفتها الخاصة بالفندق ، جلس « آى ــ وان » على حافــة فراش وقال لها :

ــ دعينى أرى معصمك يا « تاما » ..

فتقدمت نحوه ، ومدت يدها اليه .. وراح يتحسس آثار الجرح عليه ، ثم قال وهو يقبله :

ــ هل الفتاة العصرية تفعل هذا عادة لكى تصل الى غرضها ؟

فقالت بهدوء :

ــ لا ، طبعا .. ولكن أبى ليس عصريا ، ولهذا كان على أن أعامله بالطريقة التقليدية . وكان يعرف أنى جادة فى عزمى على الانتحار اذا أصر على الرفض .. ومن ثم استدرك الامر وأعلن الموافقة ..

وفاض قلبه بالهناء ، وراح يمسح آثار الجرح فى وجهه ، وهو يقول معابثا :

ــ حتى لو كان هناك حرب يا « تاما » ماكنت لتقبلى الزواج بأحد غيرى !

فهزت رأسها برفق ، ولكن باصرار ايضا ، وقالت :

ــ لا يا « آى ــ وان » لو كانت هناك حرب حقيقيــة ، لتزوجت بالجنرال سيكى .

وأبى أن يصدق اذنيه ، فقال :

ـ لا .. لا يمكن أن اصدق يا « تاما »

ـ اذن فانت لم تفهم بعد روح الشعب الياباني يا « آى ـ وان » .. ففى وقت الحرب لا أكون ملكا لنفسى ، وانما ملك لوطنى .. ان كل فرد فى الوطن ، هو ملك لهذا الوطن فى وقت الحرب ..

فقال فى سخرية :

ـ ان الجنرال سيكى ليس الوطن .. !

فقالت ببساطة ، وهى تمسح بيدها على شعره :

ـ انه قائد عظيم .. وان الامبراطور يثق فيه

ولاحظ « آى ـ وان » أن « تاما » ـ كغيرها من أفراد الشعب الياباني ـ تتحدث عن الامبراطور بنفس القداسة التى يتحدث بها المؤمن عن الله . وشعر فجأة بالغيرة من الجنرال ، وقال وهو يلف ذراعيه حولها :

ـ لايجب أن تحبى أحدا غيرى يا « تاما » !

فأخذت رأسه بين يديها ، وانحنت وقبلت شفتيه بحـــرارة ، وقالت باخلاص :

ـ اننى لا أحب أحدا غيرك يا « آى ـ وان » .. ولسوف أحبك دائما ..

ـ اذن لماذا قلت اذا كانت هناك حرب حقيقية لـ ...

ـ ان واجبى فى هذه الحالة يحتم على ...

فقاطعها قائلا :

ـ انا واجبك يا « تاما » .. أنا فقط . ولاينبغى أن يكون لك واجب غيرى

ثم جذبها اليه ، وطوقها بذراعيه فى قوة ، وانحنى عليها قائلا :

ـ والآن .. لا تتكلمى .. لم يعد ثمة مجال للكلام بعد ..

وانغمر « آى ـ وان » فى احضان الحب .. واحس بدمائه تجرى مع دمائها فى مجرى واحد ، ونحو هدف واحد ، وتغنى أنشــودة واحدة خالدة .. هى انشودة الرجل والمرأة منذ الازل ..

وفجأة جفل عنها فى دهشة واستنكـــار خفى ، حين بدرت من يديها حركة لم يكن يتوقعها من فتاة لم تعرف فى حياتها من قبل

رجلا ، وتمتم بكلمات غامضة جعلتها تنظر اليه فى دهشة بدورهـا وتقول :

ـ ماذا تقول ؟

ـ أقول كيف .. كيف عرفت هذا ؟

فنظرت اليه من مكانها على الفراش ، وقد اطلت من عينيها نظرة كلها البراءة والدهشة :

ـ هذا ما تعلمته من فتاة الجيشا .. لقد استأجرت أمى احدى فتيات الجيشا لتعلمنى كيف أسعد زوجى وأرضيه ..

وكان فى نبرات صوتها ، ونظرات عينيها ، من البراءة والسذاجة ما فتنه وافزعه فى وقت واحد . وبقى صامتا برهة ، وهو لايدرى ماذا يقول او يفعل .. وقالت هى :

ـ ما الذى يشغل بالك الى هذا الحد يا « آى ـ وان » ؟

واستطاع اخيرا ان يقول :

ـ بساطتك فى النظر الى هذه الامور .. انها تخيفنى ..

وخطر له انها لن تفهم ما يعنى .. ولكنها فهمت ، وقالت بصوتها الهادىء الواقعى بعد ان تطلعت اليه برهة :

ـ كن منطقيا يازوجى الحبيب .. أكنت تفضل أن تتزوج فتاة لا تعرف اطلاقا كيف ترضى الزوج وتسعده بالحب ، لقد تعلمت كيف أصنع ثيابك ، وكيف أطهو طعامك ، وكيف أدبر شئون بيتك ، وكيف اربى أبناءك .. فلماذا تعجب اذا كنت قد تعلمت أيضا كيف ارضيك كزوج وأسعدك كحبيب ؟ أكان يرضـــيك ألا أعرف كيف أعاملك كزوج حين ننفرد معا ؟ ان هذه اللحظات هى قلب حياتنـا الزوجية النابض .. فاذا كان القلب سليما ، فلا خوف على بقيـــة الجسم !

فتمتم قائلا :

ـ ولكن .. ولكن هذا ما تفعله الغانيات المأجورات .. !

ـ أوه .. لا .. لا ..

ووثبت من فراشها ، واسرعت الى ثوبها ترتديه وتجمعه عنـد الوسط بحزام ذهبى . ولاحظ « آى ـ وان » أن يديها ترتعدان وهى تشد الحزام ، وان صوتها يختنق بالبكاء ، وهى تقول :

ـ لا .. لاعلاقة لذلك أبدا بما تفعله الغانيات المأجورات .. انني زوجتك ، وأنا التي ستحمل في أحشائها أبناءك .. !

ومسحت عينيها بطرف كم ثوبها الواسع ، وظلت واقفة عند ستائر النافذة ، وقد تهدلت كتفاها في حزن وألم الطفلة التي حاولت أن تؤدي واجبها كما تعلمت ، فلم تفلح ..

وتقدم نحوها بسرعة ، وقال بحنان بالغ :

ـ ارجوك أن تصفحي عني ..

فقالت بحرارة :

ـ لا .. لاترجوني ، فأنت زوجي .. وما عليك الا أن تامر فاطيع، وان رسالتي في الحياة هي اسعادك ..

ورأى شفتيها ترتعدان ، فابتسم وقال :

ـ اذن فانا آمرك أن تاتي الى ذراعي ..

فاستدارت نحوه ، ورفعت وجهها اليه ، ثم أخذت الابتسامة تنتشر على محياها كله .. وهنا قال :

ـ وآمرك أن .. أن تفكي حزام الثوب ..

ورفعت يديها الى الحزام ، ولم يلبث الثوب ان سقط عن جسمها

الفصل الثاني عشر

الزلزال

« الزوجة اليابانية هي احسن زوجة في العالم .. »

كتب ابوه اليه هذه العبارة في الخطاب الذي ارسله اليه ، يبارك فيه زواجه ويهنئه به ..

وكان مع الخطاب عدد كبير من الهدايا المرسلة اليه من والدته وجديه ووالده !

وكان « آي ـ وان » ـ عدا هذا ـ قد قرا ايضا في كثير من كتب المؤلفين الاوروبيين والامريكيين انه لا يوجد في بقاع الأرض زوجة تتفانى في خدمة زوجها والاخلاص له كالزوجة اليابانية ..

وايقن هو ان ماكتبه اليه ابوه ، وما قراه في الكتب لا يتجاوز الحقيقة في شيء ، ان لم يقل عنها في كثير من الاحيان ..

لقد جعلت « تاما » حياته الزوجية في ذلك البيت الصغير الجميل الذي اقاماه ، فوق ربوة تشرف على المدينة ، سلسلة متصلة من الأعياد السعيدة . كان يفرغ من عمله في ادارة الشركة ـ وكان يونجي قد عاد من الصين واحتل مركز اخيه اكيو ـ ثم يهرع الى الطريق الصاعد نحو الربوة .. وهناك ، في مدخل حديقة البيت الصغير ، كان يجد « تاما » في استقباله بابتسامتها السعيدة ، ولهفتها الحبيبة ، واسراعها الى قدميه تخلع عنهما الحذاء ، وتضع فيهما الشبشب الياباني اللين ، ثم تمضي به الى حيث يستريح في مقعد وثير ، والى حيث يضع قدميه في ماء دافىء معطر ، والى حيث يحس بيدى « تاما » الناعمتين الرقيقتين ، وهي تدلكهما بتلك البراعة والخبرة .. حتى اذا فرغت من هذه العملية ، نهضت وساعدته على خلع ملابسه الافرنجية ، وارتداء

ملابسه المنزلية الفضفاضة المريحة ، ثم مضت تعد المائدة للطعام .. وهو الطعام الذى كانت تصر على ان تصنعه بيديها ، وعلى ان تفاجيء زوجها كل يوم بكل مايحب ويشتهى منه .. وقد سألها « آى ـ وان » ذات يوم فى دهشة :

ـ متى وكيف تعلمت طهو كل هـذه الاصناف والالوان من الطعام ؟

فابتسمت وقالت :

ـ ان واجب الفتاة اليابانية ان تتعلم جميع طرق طهو كل صنف من الطعام ، وعليها بعد الزواج أن تعرف ماذا يحب زوجها وماذا يكره من هذا الطعام .. واهم من هذا ، عليها الا تجعله يمل ما يحبه من أصناف الاكل ..!

ولم يحدث ان عاد ابدا ليجد ذرة غبار او قصاصة ورق فى جميع انحاء البيت او الحديقة .. وانما كان يجد ، فى كل لحظة يكون بها داخل البيت ، كل شيء نظيفا مرتبا منسقا ينم عن ذوق رفيع ..

اما الازهار ، فكانت فى كل غرفة ، اشكالا والوانا .. وكانت الحديقة رغم صغر حجمها بالنسبة لحديقة بيت أبيه ، او بيت ابيها ، لا تقل جمالا وجاذبية عنهما ..

فى هذا العش الجميل ، عاش « آى ـ وان » سنة بعد اخرى . وكانت الايام تمر كحلم جميل يتمنى الا يستيقظ منه يوما . وكان والده يراسله بانتظام ، وكان والدا زوجته يعاملانه بكل تقدير واعزاز ، وكأنه قد اصبح ابنا لهما

وقبل ان يمر العام الاول من زواجه ، جاءت له « تاما » بابنهما الاول جيرو ، وقبل ان ينتصف العام الثالث ، اقبلت الخادمة الى مكتبه بادارة الشركة مهرعة تبشره بوصول الابن الثانى جانجيرو

انه لا ينسى قط تلك اللحظة السعيدة التى وقف فيها مع زوجته وابنيه يحتفلون فى الحديقة بعيد الاطفال . وكان جيرو فى عامه الثانى ، يملأ جوانب البيت زئاطا وابتهاجا ، وكان جانجيرو فى شهره الثانى نائما فى كيس على ظهر الخادمة كالتقليد المتبع ..

ولم يكن يدرى ان هذه السعادة الغامرة التى امتلأ بها قلبه

فى تلك اللحظة ، سوف تنقلب فى اللحظة التالية الى احساس آخر لا يمت للسعادة بسبب !

كانوا واقفين ينظرون الى السارية الخشبية التى اقامها « آى ـ وان » فى الحديقة احتفالا بعيد الاطفال . وكانت السارية مزينة بمختلف انواع الزينة الورقية والزهور .. وكان معلقا فى اعلاها تمثال يرمز لسمك الشبوط . وكانت « تاما » تقول لجيرو الذى وقف يتأمل سمكة الشبوط فى اعجاب :

ـ تذكر ياجيرو .. ان سمك الشبوط يرمز للقوة والكفاح ، لأنه يسبح ضد التيارات البحرية وفى الجداول الباردة باعلى الجبال ..

فى تلك اللحظة ، نفسها رأى « آى ـ وان » او خيل اليه انه رأى السارية تتأرجح بقوة ، وفى نفس الوقت سكنت فجأة الرياح التى كانت تهب بعنف منذ الصباح الباكر . ونظر هو و « تاما » بحركة واحدة الى البحر الذى كان يبدو غير بعيد . ولاح لهما ان منظره بدا غريبا مكفهرا عاليا أكثر مما ينبغى . وكان ثمة هزيم خفيض عميق ، لا يدرى احد هل كان يأتى من البحر او من جوف الارض

وهتف « آى ـ وان » فى فزع :

ـ « تاما » !!

وقالت هى بصوت خافت هادىء رغم الشحوب الشديد الذى كسى وجهها :

ـ زلزال ..

وكان قد اعتاد ان ينظر الى اهتزاز الارض على انه أمر عادى ، وعلى ان الزلزال قد يحدث فى اية لحظة .. الا انه طيلة اقامته فى اليابان ـ وطيلة سنوات حياته قبل ذلك ـ لم يشهد زلزالا حقيقيا من النوع الذى قرأ أو سمع عنه . وكان فى بعض الليالى ، ينهض مع « تاما » حين يشعران بالارض تهتز وتميد تحتهما ، والغبار يتساقط من السقف على وجهيهما ، ودعائم البيت الخشبية تصدر صريرا مخيفا ، وكانت « تماما » فى مثل هـذه الحالات ترتدى ملابسها مسرعة ، وتنتظر . وكان « آى ـ وان » يعرف ان كل فرد فى المدينة ـ فى هذه اللحظة نفسها ـ قد نهض من فراشه ، وارتدى

ملابسه ، واخذ ينتظر ايضا . وعلى الجملة ، كانت زلزلة الارض تجعل السكان جميعا يتاهبون لمواجهة ما يحدث بعد ذلك ، رغم شعورهم بالعجز عن مقاومة ثورة الطبيعة !

ولكن الزلزلة كانت تنتهي بسلام في كل مرة ، اثناء اقامة « آي ــ وان » . اما هذه المرة ، فقد احس بغريزته ان الامر اخطر من اية مرة سابقة !

واندفعت « تاما » الى البيت مسرعة ، وتبعتها الخادمة بعد ان وضعت الطفل الوليد بين ذراعي « آي ــ وان » الذي وقف مذهولا بجانب ابنه جيرو يرى ما يحدث . وكانت «تاما» والخادمة تدخلان البيت وتخرجان ، حاملتين كل ما خف حمله وغلا ثمنه من الملابس والمتاع والمقتنيات . وفي كل مرة كان البيت يصر ويتأرجح، كلما مادت الارض من تحته . وكان « آي ــ وان » يقول لـ «تاما» في حيرة وارتباك :

ــ يجب ان اساعدكما .. اين اترك هذين الطفلين ؟

وكانت هي تقول له :

ــ كن معهما .. فهذه هي مهمتك

وكانت الاقمشة الثمينة ، ومعاطف الفراء ، والهدايا الغالية والجواهر كلها مودعة في خزانة خاصة ببنك المدينة المحصن ضد الزلازل . اما الملابس والمقتنيات الاخرى في البيت ، فقد استطاعت « تاما » والخادمة ان تجمعاها في العراء خارج البيت في اقل من عشر دقائق ؛ وكانهما بحاران مدربان على كيفية النجاة من السفينة عندما يتهددها الغرق ..

وقال « آي ــ وان » عندما وقفت «تاما» بجانبه اخيرا ، ومدت يديها لتأخذ منه طفلهما جانجيرو :

ــ الى اين سنذهب ؟

فقالت ببساطة :

ــ لن نذهب الى اي مكان ، لانه لا يوجد مكان يمكن الهرب فيه من الزلزال

ووقفا ينتظران، ونظراتهما متجهة نحو البحر .. وكان « آي ــ وان » يضم جيرو الى صدره بقوة ، واستكان الطفل اليه دون ان

يبكي ، وانما راح هو ايضا يتطلع الى البحر الثائر في ذهول .. وفجاة ارسلت « تاما » صيحة رعب ، ووضعت يدها على فمها .. ذلك انها رات مياه سطح البحر تتجمع عند الافق في موجة واحدة عاتية رهيبة .. لا ! انها لم تكن موجة ، وانما مد بحري رهيب يزحف على المدينة ببطء يثير الفزع ، وكان الموت الذي لا مفر منه ولا ملاذ !

وهمست « تاما » قائلة :

ــ لا يمكن ان تصل الينا مياه البحر ..

وقال « آي ــ وان » وهو يحس انه سيقع مغشيا عليه من فرط الفزع والذهول :

ــ ولكنه سوف يكتسح المدينة كلها ..

ولم يستطع ان يدير راسه بعيدا عن ذلك المنظر الذي خيل اليه انه يرى فيه صورة مصغرة من يوم البعث . لقد رأى البحر وهو يزحف ببطء رهيب ، والمياه وهي تعلو تدريجيا وكانما هي تفور ، ثم وهي تمضي نحو المدينة متجمعة كانها جنود جيش زاحف ، يتجمعون ويحتشدون كلما اقتربوا من اعدائهم ..

وهناك ــ بعيدا تحت الربوة ــ حيث المدينة الجاثمة ، كان « آي ــ وان » يرى الناس يغادرون بيوتهم مسرعين ، كانهم من بعيد حشرات صغيرة تحاول ان تتسلق اي شيء لتنجو من الموت الزاحف ..

وقالت « تاما » بهدوء :

ــ لقد بدات المياه تتحرك بسرعة لتنقض ..

ولم يرها « آي ــ وان » هادئة ساكنة ، كما كان يراها في تلك اللحظة . ولم يستطع ان يعرف هل كان الخوف يملأ نفسها ، أو انها لم تكن تشعر الا بهذا الاستسلام الذي تعلمت كيف تواجه به ثورات الطبيعة !! . وكلما اراد هو ان ينجو الى مكان ما ، وبطريقة ما ، امسكت بذراعه قائلة :

ــ لا .. لن تجد مكانا يمكن ان تامن فيه على نفسك من ثورة الطبيعة ، ولعل المكان الذي تظنه آمنا ، يكون الموت كامنا فيه !

وانقضت المياه على المدينة كسيل العرم ، وتكسر سطحها الى

امواج يعلوها الزبد .. واختفت المدينة تحتها تماما ، وقد بدا كانما البحر كله قد حط فوقها ..

وقالت « تاما » بصوت خافت :

ــ ان هذه المياه قد تبلغ فى انقضاضها بيت ابى .. انه لا يرتفع كثيرا عن المدينة ..

واخذ الاثنان يرقبان ما يجرى .. وكان انحسار المياه عن المدينة ، فى حالة الجزر ، اعنف واقسى وافظع .. لقد راحت المياه العنيفة المرتدة تسحب معها كل ما يمكن سحبه من آدميين ، واشياء ، ومتاع ، واجزاء من بيوت منهارة ، حتى كاد سطحها ان يغطى بالاف الاشياء الطافية فوقها ، ومنها الآدميون الغرقى او الذين يقاومون الغرق . والواقع أنه خيل لـ « آى ــ وان » أن المدينة كلها ــ باهلها ، وبيوتها ، وشوارعها ، واشجارها ــ قد تحركت الى البحر مع المياه المرتدة اليه !

وتوجع « آى ــ وان » واخفى وجهه فى كتف ابنه الطفل جيرو . وفى تلك اللحظة ، خيل اليه أن الارض تكاد تنشق تحت قدميه ، وفى اللحظة التالية سمع صوت البيت وراءه وهو يصر ، وبعض الحجارة تنحدر من الربوة بقوة الى المدينة بعد ان تخلخلت من اماكنها .. ولما مد يده ليمسك بذراع « تاما » وجدها ثابتة فى مكانها ، قوية ، متجلدة تقول :

ــ ان هذه الربوة الصخرية لن تنهار .. اما المرتفعات التى تعلوها فهى كما ترى حقول مزروعة ..

وكان ذلك حقا .. فقد كان ثمة حقول تمتد فى اعلى الربوة ، يرويها نهير ، كان يجرى بينها ..

ومرة اخرى احس بالارض تميد تحت قدميه ، وسمع « تاما » تقول :

ــ ان الموجة ستنقض على المدينة مرة اخرى .. ولكنها ليست ضخمة عاتية كالاولى ..

ولم يستطع « آى ــ وان » ان ينظر مرة اخرى الى ذلك الطوفان الرهيب الذى راح يغرق المدينة ، ثم يعود ويبدو كانما يسحبها كلها الى البحر . اما جيرو فكان متعلقا به ، ساكتا لا يبكى او يصيح .

وكان الطفل الوليد نائما بسلام فى كيسه وراء ظهر امه . وتذكر « آى ــ وان » فى تلك اللحظة ما قاله يونجى عن الطفل اليابانى الذى يستغرق فى النوم ، رغم كل مايصدر حوله من اصوات مزعجة!

وفجاة سمع صوت اخشاب تتفكك وتنهار .. فلما استدار ، فوجىء برؤية بيته كومة من الحطام . وسمع « تاما » تقول بهدوء :

ــ حمدا لله ان نجونا جميعا ..

واستدارت ومضت نحو حطام البيت .. وللمرة الاولى منذ زلزلة الارض جلست تستريح .. وكانت الرياح قد بدات تهب مرة اخرى ، ومياه البحر تعود الى حالتها الطبيعية بعد ان اكتسى سطحها بحطام المدينة من جماد واحياء ونبات

وشعر « آى ــ وان » بساقيه توشكان ان تخذلاه ، وبالعرق يتفصد من كل انحاء جسمه ، ثم سمع « تاما » وهى تقول ، وهى تمسح وجهها بطرف كمها ثم تاخذ جيرو عن ذراعيه :

ــ لقد رايت زلازل افظع من هذا ..

ــ اما انا ، فلم ار فى حياتى افظع من هذا ..!

ــ اوه .. ان هناك ما هو اسوأ من هذا بكثير ..

ونظر اليها فى دهشة ، وهو يراها جالسة بهدوء على جزء من حطام البيت الذى طالما شهد اجمل ايام حياتهما .. وهز راسه متعجبا ، وقال :

ــ والان .. ماذا سنفعل ؟

ــ سنستريح قليلا ، ثم نمضى الى بيت ابى لنرى ماذا حدث ..

▱

ولم يلبثا ان رايا رجلا من عامة الشعب ــ فى ثوبه القطنى الازرق يسرع صاعدا الربوة نحوهما . وكان واحدا من خدم بيت أبيها ، جاء يسال عما حدث لهما ، فقالت له « تاما » :

ــ اننا كما ترى بخير .. فكيف حال أبى واسرتى ؟!

ــ كلهم بخير .. لم تتهدم غير البوابة ، وجزء من المطبخ . وقد سقطت قطعة من الخشب على ساق السيدة سيو ، زوجة السيد يونجى فآلمتها .. هذا كل شىء

وصاحت « تاما » فى ابتهاج :

ـ آه ، ما أسعدنا !

ونهضت واقفة .. ولما رات « آى ـ وان » يتجه بنظراته الى حطام البيت الذى كان قبل ذلك بلحظات عش سعادة وهناء ، قالت له :

ـ سوف نقيمه مرة اخرى بسهولة .. واجمل مما كان !

ـ نقيمه ؟!

ـ أجل .. وهنا ، فى نفس المكان . لقد حاول البحر ان يصل الينا ، فلم يستطع .. انه مكان مناسب

ولم يكن فى حالة تسمح له بالجدل .. ومن ثم سار معها فى صمت نحو بيت ابيها ..

وعاش حياته لا ينسى ذلك اليوم .. لا ينسى نجاة بيت موراكى من الدمار ؛ ولا الشعور الممتع الذى احس به حين وجد نفسه ، وزوجته الحبيبة ، وطفليه محتمين بين اربعة جدران .. ولا المذاق الشهى للطعام الساخن الذى كانت السيدة موراكى قد أعدته لهم ، ولا الترحاب الرقيق الهادىء الذى قوبل به .. لقد كان ما حدث معجزة ، ولكن المعجزة التى حفرت نفسها فى ذهنه .. هى معجزة السكون الذى كان يخيم على كل شىء .. سكون المستر موراكى وهو يرى حديقته الجميلة وقد تدمرت تماما ، وسكون يونجى وهو يرى زوجته الجديدة راقدة بعد ان سقطت قطعة الخشب من سقف المطبخ على ساقها ، وسكون هذه الزوجة وهى لا تئن أو تتوجع بعد أن اسعفت ساقها وضمدت ، وسكون الناس فى الشوارع بعد ان تحطمت بيوتهم وابتلع البحر اقاربهم ، وسكون زميله الكاتب فى ادارة الشركة رغم وفاة أخيه الوحيد فى الكارثة ..!

انه لن ينسى ـ ما بقى على قيد الحياة ـ ذلك السكون الذى اعقب الكارثة ..

وفى اليوم التالى ، دبت الحركة والنشاط فى المدينة لاعادة كل شىء الى ما كان عليه .. لقد اخذ كل واحد فى المدينة يعمل ، وكأنه يعرف تماما ماذا ينبغى ان يعمله ، فأعيد الحاجز البحرى الى ما كان عليه من قوة .. واخذت البيوت تقام مرة اخرى على جانبى الشوارع كأنما تقيمها عصا ساحر ، وقالت « تاما » له :

ـ يجب ان نجعل بيتنا هذه المرة اكبر وارحب ..

وشعر بالخجل من نفسه ، وهو يسألها قائلا :

ـ ولكن .. اذا حدث هذا مرة اخرى ؟

فاجابت بهدوء :

ـ ليكن .. ففى امكاننا دائما ان نعيد بناءه ..

ولم يستطع أن يشكو او يتذمر ، وهو يرى الآلاف من سكان المدينة الذين فقدوا الاحباب والاعزاء فى تلك الكارثة يستسلمون للاقدار فى ايمان ورضا وخضوع .. ولعل اعجب ما رآه ، ذلك الصياد العجوز الذى راح يقيم بيته بالقرب من الميناء ، بعد ان ابتلع البحر بيته السابق

وقد قال له « آى ـ وان » :

ـ اتبنى بيتك فى نفس المكان الذى ابتلع فيه البحر بيتك السابق؟

فرفع العجوز عينيه ، وقال بهدوء :

ـ وفى اى مكان آخر اقيمه ؟.. لقد كان هنا بيت ابى من قبل .. وبيت جدى ..

ـ ولكن اذا حدث هذا الامر مرة اخرى !

ـ انه سيحدث حتما .. وكلنا نعرف هذا ..

وفى تلك اللحظة ، عرف « آى ـ وان » ، سرا من اسرار الشعب اليابانى .. ان هذا الشعب الذى يبدو مؤدبا مع الاجانب والغرباء ، والذى يعرف كيف يستمتع بحياته ، وينعم بكل مايمكن ان تقدمه الحياة اليه ، ينطوى فى الوقت نفسه على روح من الكفاح والمقاومة ليس الى وصفها من سبيل ..

وهل هناك اعظم من روح الكفاح والمقاومة التى يتعلمها الشعب ـ اى شعب ـ من كفاحه الدائم ومقاومته المستمرة لثورات الطبيعة!

غيوم

انها لم تكن حربا ! .. هكذا اعلنت الصحف ، انما هى مناوشات عسكرية ، وحملة تأديبية بسيطه ، تقوم بها القوات اليابانيه باسم الامبراطور ضد بعض القوات الثائرة فى منشوريا ..

وكان قد مضى على الزلازل الرهيبة عامان .. وكان البيت قد أعيد بناؤه على مساحة ارحب ، وكانت « تاما » قد اصرت على ان تقام فيه غرفة مكتب خاصة لـ « آى ــ وان » يستطيع فيها ان يستريح ويستجم بمفرده كلما اراد ..

ولما طال امر « المناوشات العسكريه » حتى تجاوزت ثلاثة اشهر ، بدأ « آى ــ وان » يحس بالقلق ؛ ولكن يونجى كان يقول له مؤكدا ان الحرب لن تقوم ابدا بين الصين واليابان ، وان الامر لا يعدو ان يكون خلافا بسيطا بين شقيقين ..

ولكنه ارسل يسأل اباه عن حقيقة ما يجرى فى ارض الوطن ولم يرسل اباه ردا على رسالته هذه .. بل ان اباه لم يعد يرسل اليه الخطابات بانتظام كما كان يفعل . وشعر « آى ــ وان » بالقلق ولكن هذا القلق لم يبلغ به حد اتخاذ خطوات ايجابية ليعرف ماذا يحدث فى بلاده ..

وفى ذات يوم ، استقال الكاتب من عمله فى ادارة شركة موراكى ، وذلك ليشترك فى « المناوشات » الدائرة بين القوات اليابانية والقوات الصينية فى منشوريا . وكان « آى ــ وان » يعرف انه وحيد امه العجوز الارمل .. فلما سأل يونجى عمن سيعول هذه الام العجوز ، بعد رحيل ابنها الى ميدان القتال ، قال :

ــ ان ابى سيرسل اليها نصف مرتب ابنها شهريا ..

وشغلت فتاتان يابانيتان مكان الكاتب المجند ، واقيم حاجز بين مكتبهما ومكتب « آى ــ وان »

ولاحظ فى الشهور التالية ، ان البضائع لم تعد ترد من بلاده الى اليابان ، وكأنما توقفت التجارة بينهما تماما . وزاد هذا من شعوره بالقلق ، ولكنه فوجىء ذات يوم ببرقية من والده جاءت اليه عن طريق يونجى . وقد تعجب لهذا ، ولكنه لم يحاول ان يسأل عن السبب . وكانت البرقية كما يلى :

« سيصل اخوك « آى ــ كو » الى يوكوهاما على الباخرة بالمورال فى اليوم السابع عشر .. استقبله على الميناء »

وكان ذلك فى اليوم الخامس عشر من الشهر ..

وقال له يونجى :

ــ هل سيأتى اخوك ؟

فسأله « آى ــ وان » قائلا بدهشة :

ــ كيف عرفت ؟

ــ ان ابى يريد ان يرسل هدية الى والدك عن طريق اخيك « آى ــ كو »

ــ وكيف عرف والدك بالامر ؟

ــ لقد استلم البرقية ، وهو فى البيت .. وقرأها طبعا ..

ــ لماذا ؟ ..

فتظاهر يونجى بالدهشة ، وقال :

ــ لكى يعرف مدى اهميتها ..

وكاد « آى ــ وان » ان يرد على هذا بقوله « وما شأنه هو ببرقية واردة لى ؟ » ولكنه امسك عن الاستطراد فى الحديث عن هذا الموضوع ، ثم قال :

ــ ارجو ان تبلغه شكرى ..

وقال يونجى ، وهو يتأمله فى عجب :

ــ اعتقد انه لا مندوحة لك من الذهاب لاستقبال اخيك ..

ــ طبعا .. لابد ان اذهب ..

وكان قد فكر فى ان يصحب « تاما » وطفليه ليراهم اخوه ،

ولكنه عدل عن هذا الرأى ، وهو ينصرف من مكتب بوتجى ..

وقف على رصيف الميناء ، يتطلع الى ركاب الباخرة بالورال ،وهم يهبطون منها .. وما لبث ان لمح « آى ــ كو » وهو يهبط بملابسه الافرنجية الانيقة . ولكنه دهش حين رآه ، وكانما قد اصبح شخصا آخر .. انه يرى « آى ــ كو » مشدود القامة ، مرفوع الراس ، صارم الملامح ، مزموم الشفتين .. وكانما حولته هذه السنوات العشر من طفل مدلل ضعيف الى رجل موفور الرجولة والاتزان

ورغم انه لم يكن يشعر نحو اخيه بحب كبير ، الا انه لم يملك نفسه فى تلك اللحظة من الاندفاع اليه ، ومعانقته مرحبا ، وقد طفرت الدموع الى عينيه . وكان قد لمح وراءه فتاة اوروبية فى فستان ابيض قصير بلا اكمام ، تهبط من السفينة .. ولكنه فوجىء بها تقف وراء « آى ــ كو » وتنظر اليه فى دهشة بعينيها الزرقاوين ، وهى تمسح على خصلات شعرها الناعم الذهبى بيد كبيرة ناصعة البياض ..

واستدار « آى ــ كو » الى هذه الفتاة الاوروبية ، وقال باللغة الالمانية :

ــ فريدا .. هذا هو اخى « آى ــ وان »

وتأمل « آى ــ وان » تلك الفتاة الالمانية ، وقارن بين صلابتها الواضحة فى كل شىء عليها ، وبين رقة « تاما » ولطفها ، ثم شعر بنفور طبيعى منها ..

وهتفت الفتاة بصوت مرتفع :

ــ آها ! .. شىء رائع ان اراك ..

وامسكت يده ، وراحت تصافحه بعنف ثم اذا به يفزع حين رآها تنحنى عليه وتقبله فى وجنته بشفتيها المنمنمتين ، وهى تقول ضاحكة :

ــ اهلا باخى « آى ــ وان » .. :

وقال « آى ــ كو » فى ترفع وزهو :

ــ هذه زوجتى يا « آى ــ وان » .. ان اسمها فريدا فون ربكوزين ، ووالدها من كبار الضباط الالمان ..

ولم يستطع « آى ــ وان » ان يقول شيئا فى مجال العتاب او الاعتراض ، لانه لو اعترض عليه لزواجه من فتاة اوروبية ، لرد قائلا ان هذا افضل من الزواج بفتاة تنتمى الى شعب عدو !

وعادت فريدا تقول فى صوت ينم عن البهجة :

ــ اننا عريسان .. وان كل شىء ليبدو رائعا ..

وتناول « آى ــ وان » منديله ، وراح يمسح كل وجهه .. وحرص على ان يمسح ــ سرا ــ الاثر الذى تركته بشفتيها على خده ، ثم قال لاخيه وهم لا يزالون على رصيف الميناء :

ــ « آى ــ كو » .. اننى كدت لا اعرفك ..

وكان يتحدث باللغة الصينية ، لاول مرة منذ سنوات عديدة ، وقد اسعده ان هذه الفتاة الاجنبية لم تكن قد تعلمتها بعد . ورد « آى ــ كو » قائلا وهو يبتسم :

ــ اجل يا « آى ــ وان » لقد تغيرت كثيرا واصبحت رجلا ...

ثم اردف قائلا بعد برهة صمت :

ــ اننى مدين بهذا الفضل لابى .. حقا كرهت المانيا فى اول عام من اقامتى بها .. ولكننى لم البث ان الفت الحياة فيها واحببتها . اين يمكن ان نتحدث بحرية يا « آى ــ وان » ؟ .. ان لدى الكثير مما اريد ان اقوله ، والباخرة لن تمكث فى الميناء طويلا .. انها ستبحر بعد ساعة واحدة ، بعد ان كان المنتظر ان تمكث اربع ساعات ..

فقال « آى ــ وان » على سبيل المجاملة :

ــ ولكن .. الا يمكن ان تبقى بضعة ايام ، ثم تستقل باخرة اخرى ؟

فهز « آى ــ كو » راسه قائلا :

ــ لا .. يجب ان اعود الى الوطن فى اسرع وقت . اين يمكن ان نذهب الان ؟

ــ اعتقد ان من الممكن ان نمضى فترة ما فى هذا المطعم الصغير بالقرب من الميناء ..

وفى المطعم ، جلس الثلاثة الى مائدة واحدة ، وراح « آى ــ كو » يقول باللغة الصينية :

— « آى — وان » .. انك لا تستطيع الاستمرار فى الاقامة هنا .. يجب أن تعود الى وطنك فورا ..

فغمغم « آى — وان » قائلا فى ارتباك ، وهو يحملق فى وجه اخيه :

— ولكن .. ولكن ، هذا مستحيل .. اننى رب اسره هنا

فقال « آى — كو » بدهشة :

— عجبا !.. ايمكن ان تكون جاهلا بما يجرى فى بلادك ؟

— ماذا بها ؟! ..

— الم تسمع بما حدث ؟!

— لا .. لم اسمع شيئا ..

فهمس « آى — كو » فى اذنه قائلا :

— ان القوات اليابانية توشك ان تستولى على العاصمة نانكنج..

فغمغم « آى — وان » قائلا فى بلاهة :

— نانكنج .. ؟ !

— عجبا ! .. الم تقرأ او تسمع شيئا عن هذا طيلة هذه المدة ؟

— كل ما اعرفه ان الامر لا يتجاوز مجرد مناوشات عسكرية ..

وأسرع « آى — كو » يقول ، حتى يفرغ مما لديه قبل ان تنتهى الجلسة :

— لقد ادرك ابى ان الموقف خطير .. ومن ثم ابرق الى لكى اعود مسرعا . انالجنرال «شيانج-كاي-تشيك» يريدنى للاشتراك فى عملية تنظيم الجيش الصينى على النمط العصرى .. وقد تقرر المقاومة حتى النهاية ..

فقال « آى — وان » فى بلاهة وارتباك :

— ولكن الشعب اليابانى هنا لا يعرف شيئا مما يجرى ..

— ان السلطات العليا تخفى عنه الحقائق فى هذا الشأن .. ولكننى أؤكد لك ان الاوامر صدرت بالتعبئة العامة فى كلا البلدين .. اننا يا« آى — وان » نخوض اكبر وافظع حرب فى تاريخنا .. تعال معى يا « آى — وان »

— الآن ؟ ! ..

— نعم .. الان .. ان لدى من النقود ما يكفى لسفرك معى الى

الوطن ، وقد طلب ابى ..

— ولكن اسرتى يا « آى — كو » ؟

فهمس « آى — كو » بعنف قائلا :

— ان كل ما ينبغى ان يكون بينك وبين اليابان هو الحقد المتبادل .. الحقد الابدى .. الحقد على كل شخص وكل شىء يابانى !

فصمت « آى — وان » برهة ، وهو يفكر فى « تاما » . هل يمكن ان يحقد عليها ؟!

ايمكن ان يكره الفتاة الوحيدة التى يحبها كل هذا الحب .. زوجته ، وام طفليه ، لان بلاده فى حرب مع بلادها ؟.. ما ذنبه هو .. وما ذنبها هى ؟ !

وقال متلعثما :

— اننى لا افهم .. لا استطيع ان افهم .. لماذا تقوم الحرب بيننا وبين اليابان ، اننا لسنا اعداء ..

فقال « آى — كو » بحزم :

— بل اعداء الداء .. اين كنت يا « آى — وان » حتى لا تعرف ماذا تفعل القوات اليابانية ببلادك ؟ .. يبدو ان زواجك قد جعل منك يابانيا !

— لا . لا . ليس الامر كما تقول . اننى لم أعرف شيئا ، لان ابى لم يرسل الى شيئا من هذه المعلومات ..

— ومن يدريك انه كان يرسل اليك خطابات فيها مثل هذه المعلومات ، ولكن الرقابة اليابانية تمنع وصولها اليك ..

وانقضت الساعة دون ان يقرر « آى — وان » شيئا ، ولكن حديث « آى — كو » ترك فى نفسه اثرا عميقا ، وفيما هما يعودان الى رصيف الميناء مع زوجة « آى — كو » الالمانية ، قال هذا لاخيه :

— الن تأتى معى يا « آى — وان » ؟

— لا .. لا .. ليس الان . ليس هكذا على الاقل !

— لماذا لا ؟ ..

فقال « آى — وان » فى خجل :

— انني .. انني لا أستطيع ان ارحل عنهم هكذا . لقد كان المستر موراكي وزوجته جد عطوفين على .. انهما يعاملانني كابن عزيز ، فكيف ارد جميلهما هكذا ؟! ..

— اذن فاني أقول لك هذا نيابة عن ابي .. ان عليك ان تعود الى وطنك في اسرع وقت ممكن .. عد اليه في ايام بدلا من اسابيع .. او في ساعات بدلا من ايام .. ان الوطن في حاجة الان الى كل فرد من ابنائه يستطيع ان يحمل سلاحا !

ووضع « آى ــ كو » يده على كتف « آى ــ وان » قبل ان يصعد سلم الباخرة ، واردف قائلا :

— ان اليابان الان هي آخر بلد يمكنك الاقامة فيه .. ان هذا عار .. والان اودعك الى لقاء قريب ، في ارض الوطن ، بعد ايام .. ولسوف اكتب لك عند وصولي بحقيقة ما سوف آراه ..

وصعد « آى ــ كو » الى الباخرة ، ووقف « آى ــ وان » يلوح له مودعا ، وهي تتحرك خارج الميناء .. ولكنه كان يشعر ــ في نفس الوقت ــ انه اصبح اكثر بعدا من اخيه عن ذي قبل

وعاد الى ناجازاكي في تلك الليلة بالقطار ، ووصل الى بيته في الصباح .. وهناك استقبلته « تاما » ووالداه بالترحيب والتهليل والبشر ، ورغم شعوره بالاشمئزاز كلما تذكر زوجة « آى ــ كو » الالمانية ، الا انه لم يسعه الا الشعور بأن « تاما » قد بدت له في ذلك الصباح يابانية تماما .. وقد قال لها فجأة :

— الاحظ انك ترتدين الان الكيمونو والجيتا باستمرار !

فضحكت في رفق ، وقالت بلهجة اعتذار :

— هل يضايقك هذا ؟ .. انني اشعر بالراحة في هذه الثياب ..

ولما انحنت لتخلع له حذاءه ، وتضع في قدميه الشبشب اللين قال في صوت ينم عن الضيق :

— وهل من الضروري ان تستمري على هذا التقليد الياباني؟!

فقالت في اصرار :

— انني لا افعل هذا الا لك انت ..

ولما نام جانجيرو ، وحملته الخادمة وراء ظهرها في كيسه كالمعتاد

في اليابان ، قال محتجا لاول مرة في حياته الزوجية :

— لماذا تحمل الخادمة الطفل على هذا النحو دائما ؟ .. ان هذا يقرفص ساقيه ويقوسهما ، ويجعله ينمو قصيرا مقوس الساقين مثل اخيك يونجي .. !

وهنا لم تبتسم « تاما » ولم تعتذر ، وانما قالت في احتجاج واستنكار :

— لا يا « آى ــ وان » .. لا ينبغي ان تتحدث هكذا ، لا سيما امام جيرو .. انه الان يفهم الشيء الكثير مما يدور حوله .. ثم ان حمل الطفل على هذا النحو ، اثناء نومه يضمن له الدفء والامان ..

فاصر على رايه ، قائلا :

— ضعيه في فراشه .. انني لا اريد ان اراه محمولا بهذا الشكل !

ورأى في عينيها انه حقا يفترى عليها ، بلا سبب معقول ، ومع هذا فقد ابتسمت برفق وقالت :

— لا شك انك متعب بعد هذه الرحلة الطويلة .. اذهب يا جيرو والعب في الحديقة ، حتى ادعوك ..

ورد « آى ــ وان » قائلا بجفاء :

— انني لست متعبا !!

وانتهى الامر عند هذا الحد .. وغابت « تاما » فترة من الوقت في المطبخ ، ثم عادت اليه ــ بعد ان هدأت اعصابه ــ وراحت تداعبه، وهي تقدم اليه فنجانا من الشاي جيد الصنع حتى عاد الابتسام الى شفتيه . وكانت هذه طبيعتها معه دائما .. فسواء كان هو المخطئ في النزاع او لم يكن ، فقد كانت تتركه فترة على انفراد ، ثم تعود اليه بالشاي لتعيد اليه الابتسام

وجلس في ذلك اليوم الى مائدة الطعام ، يتناوله في صمت وفي شعور بالخجل من نفسه .. ان « تاما » لم تتغير ، وانما بقيت كما كانت دائما .. نفس الفتاة الناضرة الباسمة المتفانية المحبة المطيعة التي ترى انها لم تخلق في الدنيا الا من اجل اسعاده .. انها تؤدي تماما ما تعلمت ان تؤديه . وهنا خطر بباله فجأة ان هذه طبيعة اليابانيات واليابانيين .. ان كل فرد في اليابان يؤدي ماتطلب

منه اداؤه ، ولكن من الذى يفرض فى النهاية هذا الواجب الـذى يؤديه كل يابانى باخلاص وتفان ! اهى روح الشعب ، أم الامبراطور؟ لا .. ان الامبراطور نفسه يؤدى بنفس هـــذا الاخلاص ما يطلب منه اداؤه . وهكذا ادرك ان الشعب اليابانى كله مصبوب فى قالب واحد .. هذا القالب هو التفانى فى اداء ما يحس به الفــــرد من واجبات مفروضة عليه .. وفى هذا القالب نفســـــه سوف يصب ولداه ايضا

وفى المساء ، عندما اوى الى فراشه ، كان يحس بصداع ثقيل .. وادركت « تاما » ما يعانيه ــ كعادتها ــ من نظرة واحــدة الى وجهه ، ومن ثم راحت تدلك راسه وجبينه وجوانب وجهه باطراف اناملها تدليكا رقيقا بارعا ، وكانت اصابعها لا تكاد تلمس بشرته، ومع ذلك كان يحس انها تدلك اعصابه ..

وقال لها ، بعد فترة صمت طويلة :

ــ اعتقد انك خبيرة بكل شىء ..

ــ هل انت الان احسن حالا ؟

ــ اجل ..

وانحنت عليه برفق وشم هو عبيرها الزكى ، وقالت له :

ــ انك متعب اليوم جدا ؟

ــ اجل .. وفى اشد الحاجة الى النوم ..

ولمست خديه بكفيها فى حنان ورفق ، ثم رقدت بجانبه لتنام فى هدوء تام ، بحيث كان لا يكاد يشعر بها ..

وراح يفكر ..

ترى أليست لها ارادة خاصة بها ؟ هل تعلمت ان تتفانى تماما فى زوجها بحيث ترى انه ليس لها اى حق فى احساسات خاصة بها؟ .. لقد عرفها ــ وهى عذراء ــ فتاة عنيدة ، قوية الارادة ، ترى ان من حقها الا يتدخل احد فى عواطفها ، فكيف تغيرت الى هذا الحد بعد الزواج ؟

وفجأة ادرك شيئا خطيرا .. ادرك ان تفانيها فى خدمته ، لا يدل على فقدانها لارادتها او شخصيتها ، وانما على العكس من هذا ..

يدل على انها ركزت كل ارادتها لاسعاد الرجل الذى يشـاركها الحياة، ويكدح لكى يوفر لها ولابنائها اطايب الحياة . انهـا بهذا التفـانى تؤدى واجبها المفروض عليها كزوجة ..

واعجب من هذا انها حين تنام ، لا تتحرك .. لا تاتى باية حركة تزعجه ، او تؤرقه ، او تقطع عليه نومه . وكان يعلم ان هذه هى طبيعة الزوجات اليابانيات جميعا .. افليس هذا دليلا اكيدا على قوة الارادة وحب النظام ؟

ان قوة الارادة ، وحب النظام ، طبيعتان فى الشعب اليابانى .. وانه لا ينس ماحدث بعد الزلزال الرهيب .. انه لم ير احدا يجزع، أو يشكو ، رغم ان سمات كل فرد كانت تنم عن الالم العميق الذى يزلزل كيانه ..

ولكنه كان يعلم ايضا ــ اثناء اقامته ــ ان هذه الطبيعة من قوة الارادة ، وحب النظام ، والتفانى فى اداء الواجب ، اذا انهارت أو تصدعت لسـبب ما .. فانها تكون كخزان المياه الذى ينهار سـده فيغرق ويدمر كل شىء !

ترى كيف يكون حال « تاما » اذا حدث ما يؤدى الى انهيار هذا السد المنيع من الارادة وحب النظام ؟

ونظر اليها ، وهى نائمة فى الضوء الخافت ، وتطلع الى وجهها الحلو الساجى الذى بدا فى تلك اللحظة ، كوجه عذراء بريئة طاهرة القلب ..

وقال لنفســه عندئذ : « اذا حدث اى تصدع فى طبيعة « تاما » فسوف اكون انا السبب »

ومد يده ، ولمس خدها برفق ، وقال هامسا :

ــ « تاما » ..

واستيقظت فورا ــ كعادتها ــ وجلست ، وهى فى تمام صحوها، وقالت بلهفة :

ــ نعم يا « آى ــ وان » .. هل تريد شيئا ؟

ــ لا .. لاشىء .. اريد فقط ان تتحدثى معى ، لانى مؤرق ..

فمدت ذراعيها ، ولفتهما حول عنقه ، وقالت :

ــ لا تجهد نفسك بالتفكير الكثير يا عزيزى ..

فقال ، وهو يضمها الى صدره ، ويقبلها بحرارة :

— انني لن افكر في شيء بعد اليوم ..

وقال لنفسه ، وهو يشعر بدفء جسمها العاطر الملتصق بجسمه :

« مهما حدث خارج هذه الغرفة ، فلن يكون له شأن في حياتي ... »

الفصل الرابع عشر

الكارثة

كانت الاسرة كلها مجتمعة في بيت المستر موراكي ، للاحتفال بمناسبة بلوغه سن السبعين .. وكان كل ما يتصوره الانسان من ظلال البهجة والسعادة يرفرف على افراد الاسرة ، ويملأ قلوبهم بالغبطة والرضا ويرسم على وجوههم هذه الابتسامات العريضة المشرقة . وكان يونجي — كعادته — يضحك ، ويعاتب زوجته ستسيو ، قائلا انه تعمد ان يتزوج اقبح فتاة يابانية شكلا ، حتى ٧ - ١.و وهو بجانبها شديد القبح . ورغم هذا التعريض المؤلم ، كانت يسيو تنظر اليه في ولاء وحب ، وتضحك لمعابثاته هذه الثقيلة . اما المستر موراكي ، فكان كل شيء في تصرفاته نحو « آي — وان » و « تاما » ينم عن فخره الشديد بحفيديه : جيرو ، وجانجيرو ، ولا يكف عن القول انهما جمعا اجمل الخصائص التي يتميز بها الشعبان الصيني والياباني

كان افراد الاسرة جميعا ، جالسين سعداء هكذا في قاعة الاستقبال ، بعد ان عادوا جميعا من الحفلة العامة التي اقامها تجار المدينة صباحا في الفندق تكريما للمستر موراكي بمناسبة بلوغه سن السبعين .. وكان المستر موراكي جالسا متصدرا افراد اسرته مجهدا بعض الشيء بسبب حفلة الصباح .. ولعله كان يفكر في حياته كلها التي توالت اعوامها في الكد والعمل والاستمتاع بأطيب ما في الحياة ، وكان يونجي جالسا يتحدث في همس مع اخيه سيو الذي جاء من يوكوهاما مع زوجته وولديه ، للمشاركة في الاحتفال .. وكان « آي — وان » جالسا بجوار « تاما » يفكر في المستر موراكي ، ويعتبر انه عاش حياة نموذجية بحيث اصبح لا يكاد يشتهي شيئا !

فى تلك اللحظة نفسها سمع الجميع ضجيجا فى الشارع ، جعل بونجى يهتف قائلا فى دهشة :

ـ ترى ماذا حدث ؟ .. ماذا جرى ؟. .

وصاحت زوجة سيو :

ـ هل هو زلزال ؟. هل شعر احدكم بشىء ؟

وانطلق الجميع الى الحديقة حيث وقفوا كالمعتاد ، ينتظرون ان تهتز الارض من تحتهم ، لكى يسرعوا الى انقاذ ما يمكن انقاذه من متاع البيت ..

ولكن الارض لم تهتز .. وظلت الحديقة حولهم كما هى .. وفجأة اقبل البستانى العجوز يجرى نحوهم ، ممسكا بصحيفة مسائية.. لم يكد مداد المطبعة يجف عليها ، وكانت صفحتها الاولى تحمل عنوانات ضخمة تدل على وقوع احداث اشد ضخامة . واختطف بونجى الصحيفة من يد البستانى ، وراح يقرا لافراد الاسرة الذين تزاحموا حوله ..

وفى لحظة واحدة ، عرف الجميع نبأ « الكارثة » .. عرفوا ان ثلثمائة مواطن يابانى كانوا يقيمون فى بلدة صغيرة بجوار نانكنج ذبحوا عن آخرهم ، رجالا ونساء واطفالا ، على ايدى الجنود الصينيين !

واعلنت الصحيفةبالخط العريض قائلة ان هذا هو نتيجة موقف الحكومة المسالم نحو تحرشات الصينيين التى لا تنتهى ، وراحت تطالب بالانتقام السريع !

ولم ينطق احد بكلمة .. ولم ينظر احد الى « آى ـ وان » وانما ظلوا واقفين واجمين ، كما لو كانوا ينتظرون زلزلة الارض تحت اقدامهم . وحتى‌الاطفال .. احسوا بظل الكارثة وهو يثقل‌عليهم ، فلزموا الصمت . وفى هذا الجو الساكن ، كانوا يسمعون الضجيج فى الشارع يزداد ، ورنين تليفون داخل البيت ، ولكن احدا لم يتحرك من مكانه ..

واقبلت من داخل البيت خادمة مسرعة ، تقول :

ـ ان سيدى بونجى مطلوب ليقدم نفسه الى مكتب الجنرال سيكى

واستدار بونجى دون ان ينطق بحرف ، وسار نحو البيت وزوجته ستبسبو وراءه ..

وفجأة سمعوا نحيب امراة تبكى فى خفوت ـ وكانت خادمة « تاما » فقالت هذه لها فى دهشة وحدة :

ـ ماذا بك يا مايا ؟

فتمتمت المراة قائلة :

ـ اخى .. لابد انه بين القتلى . لقد كان يمتلك متجر جزارة صغيرا هناك .. فى الصين فى نفس البلدة التى وقعت فيها المذبحة ..

□

وشرعت تشهق بالبكاء .. ولما رآها الطفل جانجيرو هكذا ، صاح باكيا ايضا ، فاخذه « آى ـ وان » بين يديه ، ولكنه لم يعرف كيف يسكته ، لانه كان فى حالة ذهول وارتباك . وكان قد اخذ الصحيفة من بونجى ، وقرا الخبر بامعان .. ثم راح يتساءل فى نفسه :

« ما معنى هذا ؟ وكيف يمكن ذبح ثلثمائة رجل وامراة وطفل مسالمين آمنين بلا سبب ؟ »

وقالت له « تاما » :

ـ هات الطفل .. انه لا يزال يبكى ..

واحس انها تأخذه منه فى‌شىء من القوة والاصرار .. وفى نفس الوقت ، عاد بونجى بوجه جامد ليقول لابيه :

ـ صدرت الاوامر الى للتجنيد فورا .. لقد اعلنت التعبئة العامة ..

واستدار عائدا الى البيت ، ولم يقل احد شيئا .. وتمنى « آى ـ وان » ان يوجه احد الحديث اليه ـ اى حديث ـ لكى يستطيع ان يقول لهم : « لا .. ليس من المعقول اطلاقا ان يقتل الجنود الصينيون هؤلاء الثلثمائة يابانى بغير سبب معقول »

وقالت « تاما » بصوت غريب النبرات :

ـ يجب ان نعود الى البيت ..

وعندئذ بدا الجميع يتحركون ،وينحنون مودعين ، مودعين فقط .. فان احدا منهم لم يحاول ان يقول شيئا آخر . ومن ثم لم تتح الفرصة لـ « آى ـ وان » لكى يقول شيئا ..

ولم يسعه الا ان يتبع « تاما » وولديه والخادمة التى احمرت عيناها من فرط البكاء .. وكانت الضجة فى الشارع قد هدات ، وعاد السكون مخيما على كل شىء كالمعتاد . لقد عرف النـــاس جميعا ما حدث ، فراحوا يسيرون وهم يتبادلون الحديث وقد اربدت وجوههم ، وخفتت اصواتهم .. وكأنما قد عقدوا العزم على شىء رهيب

واحس « آى ـ وان » بنظرات الناس فى الشارع تتركز عليه برهة ، وقد ادركوا انه ليس منهم . ولشد ما تمنى فى تلك اللحظات، لو استطاع ان يصيح قائلا ان مواطنيه كسائر البشر ، لا يمكن ان يرتكبوا هذه المذبحة بلا سبب يبررها !

وراح يتذكر صديقه « اين ـ لان » وما كان يحدثه عن فظائع اليابانيين فى شمال الصين ، ولطالما ابى ان يصـــدق ما كان يقوله « اين ـ لان » ، ولكنه يحاول الآن ان يصـــدق هذه الاقوال حتى يجد فيها المبرر الكافى لما حدث ..

ـ ترى اين « اين ـ لان » الان ؟

ـ لا شك انه مات على حبل المشنقة ..

ـ آه .. لقد كان « اين ـ لان » يهمس له دائما فى اذنه : «لسوف نتخلص من جميع اليابانيين فى الصين بعد الثورة .. »

واراد ـ بعد ان وصل الى البيت ـ ان يفسر الامر لـ «تاما» .. ان « تاما » هى فقط التى تهمه فى اليـابان كلها .. ولكنهـا بدت مشغولة جدا ، بعد ان سمحت للخادمة ان تعود الى والديها لتخفف عنهما ، وان تغيب يومين او ثلاثة حتى تهدا اعصابها ..

ولما حاول « آى ـ وان » ان يساعد زوجته فى اعمال البيت بعد انصراف الخادمة ، قالت له :

ـ لا يا « آى ـ وان » .. اذهب الى غرفتك الخاصة ، واسترح .. انني استطيع ان اقوم باعمال البيت بمفردى ..

ومضى الى غرفته .. وكان يتمنى لو انها سألته فقط « كيف امكن ان يحدث هذا » لكى يشرح لها الامر .. ولكنها لم تحـاول ان تقول شيئا .. وانتشرت الظلمة فى الجو ، واقبلت هى واضاءت نور الغرفة ، قائلة :

ـ « آى ـ وان » .. لماذا تجلس هكذا فى الظلام ؟.. تعال .. قد اعددت العشاء

وتناولت يده فى رفق وحنان ، ومضت الى مائدة الطعام .. ثم راحت اثناء الاكل ، تتحدث بسرعة وانطلاق ، لا عما حدث .. وانما عن ذكرياتها مع ابيها وهى فتاة عذراء ، وتشيد بحنانه وعطفه . وهنا قال لها :

ـ حتى عندما اراد ان يزوجك بالجنرال سيكى ؟

فأجابت بثبات :

ـ انه لم يرد هذا ، الا وهو يعتقد تماما انه الصواب ..

وتلاقت نظراتهما برهة .. وقال لنفسه : « ما جدوى هـذا الحديث ما داموا يعتقدون الخطأ صوابا »

ولزم الصمت ..

◇

وبدأ « آى ـ وان » يشعر فى الاسابيع التالية ، ان كل شىء قد تغير فى حياته بطريقة خفية مزعجة .. ان احدا لم يوجه اليه كلمة سوء أو حتى عتاب ، ولكنه كان يشعر انهم ـ فى أعماق نفوسهم ـ ينظرون اليه على انه واحد من افراد هذا الشعب الذى ارتكب تلك المجزرة فى حق مواطنيهم المسالمين . وكان يقوم بعمله فى ادارة الشركة كالمعتاد ، ولكنه لم يحتل مركز يونجى بعد تجنيده كما كان يتوقع .. وانما ظلت غرفة يونجى مغلقة بضعة ايام ، حتى عين للادارة مدير يابانى ..!

وفى البيت ، كان كل شىء يبدو كما هو .. وكانت «تاما» حريصة اشد الحرص على توفير كل اسباب الراحة له . ولكنها امتنعت من الخروج معه الى النزهات كالمعتاد ، دون ان تذكر السبب الحقيقى .. وانما كانت تعتذر حينا بالتعب ، وحينا بكثرة اعمال البيت ..

وقد طلب منها ذات يوم ، ان يذهبا مع الطفلين الى الحديقة العامة ، فهزت راسها قائلة :

ـ انهما سعيدان هكذا .. فلماذا نتعب فى الذهاب بهما الى هناك ؟

وكان يتساءل فيما بينه وبين نفسه :

« ترى هل تعانى الشيء الكثير من احتقار مواطنيها لانهـــا زوجتى ! »

وحدث ان كان جالســا فى غرفة مكتبه الخاصة بالبيت ، حين سمع جيرو فى الحديقة يسأل امه قائلا :

ـ لماذا تبكى « مايا » كثيرا يا اماه .. انها لا تكف عن البكاء ، كلما ابتعدت عنك

وسمع « آى ـ وان » زوجته تقول بهدوء :

ـ لان اخاها قتل يا جيرو ..

ـ ومن قتله يا اماه ؟

ـ الجنود الصينيون فى الصين ..

فرد الطفل بصوت كله استياء واستنكار :

ـ اذن فهم اشرار ..

وغضب « آى ـ وان » واطل من النافذة ، وقال لزوجته التى كانت تروى الزرع :

ـ « تاما ! » .. كيف يمكن ان يفهم الطفل هذا الحديث ؟

ورفعت عينيها اليه .. ولم تقل شيئا ، وقبل ان يستطرد هو فى الحديث ، راى ابنه جيرو يجرى وراء فراشة ملونة ، يحاول الامساك بها ..

وتراجع « آى ـ وان » عن النافذة ، وقد راى بنفسه ان الطفل نسى فى لحظة كل ما سمعه فى هذا الشأن !

وبعد نحو ساعة سمعها تنادى عليه .. فذهب اليها ، وراح يتمشى معها فى جوانب الحديقة وقد وضع ذراعه فى ذراعها ، وكان الطفلان قد اويا الى غرفتهما للنوم . وقرر « آى ـ وان » ان يتحدث مع « تاما » فى ذلك الموضوع ، بأية طريقة ، حتى يزيل الضباب الذى خيم على حياته بسببه ..

قال لها :

ـ هل كان الطفلان فى حالة طيبة اليوم ؟

فأجابت بهدوء :

ـ جدا ..

ـ اننى ارجو ان تفهمى : لماذا تحدثت بهذه اللهجة بشأن جيرو ..

فقالت بسرعة :

ـ أوه .. طبعا .. ولكن الاطفال لا يتذكرون هذه الاشياء ..

وقرر ان يستمر فى الحديث ، فقال :

ـ ارى يا « تاما » ان الواجب يحتم علينا ان ننتظر حتى نعرف الحقيقة كاملة فى ذلك الشأن .. لقد كتبت الى ابى اسأله ، وارجو ان اتلقى الرد بسرعة قبل ان اقرر شيئا ..

فقالت ، وقد شحب وجهها فجأة :

ـ تقرر ؟!

ـ اقصد ، أحكم فى الموضوع ..

واشاحت بوجهها نحو البحر ، ولم تجب ... فقال فى اصرار ..

ـ الا ترين هذا ؟..

ولما استمرت فى صمتها ، صاح غاضبا :

ـ « تاما » !

واخيرا قالت :

ـ ما شأن هذا الموضوع بحياتنا ؟!

وادرك انها تريد ان تتجنب الحديث فى هذا الشأن ، ولكنه كان يدرك انها تحس به فى اعماق نفسها .. ولعلها تراه مسئولا عما حدث بصفته مواطنا صينيا

واصر على ان يصل الى اعماق نفسها ، فقال :

ـ لابد ان تدركى ان هناك سببا يبرر ما حدث ..

فقالت بسرعة : وكأنما كانت الاجابة معدة منذ زمن طويل :

ـ ما قيمة تفكيرى او ادراكى ما دمت زوجة لك ..

وادرك ان هذه هى الاجابة التقليدية للفتاة اليابانية التى نشأت على وجوب طاعة زوجها .. ومن ثم ، قال بصوت مرتفع :

ـ لا تكونى .. يابانية الى هذا الحد .. !

فقالت بهدوء :

ـ ولكننى يابانية فعلا .. !

وبعد برهة صمت ، قال :

ــ الحقيقة ، انك كونت فعلا فكرة خاصة من هذا الموضــوع .. انك تؤمنين الان ــ دون مبرر ــ ان قومى سفاحون كالهمج فى الغابات البعيدة عن المدنية والحضارة .. ولكن الحقيقة ، هى انك لا تعرفيننا .. واذا كان هذا رايك ، فانت لا تفهميننى . لقد تعذبنا سنوات طويلة ، بينما كان اليابانيون ينهبون ثرواتنا ، ويغتصبون اراضينا ، ويستولون على تجارتنا .. ..

واحس انه مخطىء بهذا الحديث ، لانه ــ جعلها رغما عنها ــ تقف فى صف مواطنيها للدفاع عنهم . ولكنه قرر ان يستمر فى هذا الحديث ، مادام قد بداه ، فقال بصوت مرتفع :

ــ اننى اعرف ماذا حدث .. ان جنودنا لم يستطيعوا ان يحتملوا منظر العلم اليابانى يرفرف على « بكنج » بعد ان سقطت فى ايدى القوات اليابانية .. لقد تعذبنا كثيرا ..

وهنا صاحت قائلة فى حماس وعنف ، وهى تهز ذراعه :

ــ ومن الذين قتلوا اليابانيين فى « نانكنج » فى ٢٧ مارس عام ١٩٢٧ ؟. ومن الذين قتلوا اليابانيين فى شنغهاى عام ١٩٣٢ ؟

فهتف قائلا :

ــ هل تعتقدين اننى مسئول عن هذا ؟

فهزت راسها قائلة ؟

ــ لا .. ولكن قومك هم المسئولون !

فقال :

ــ وما الفرق بينى وبينهم فى نظرك ؟ الست واحدا من هؤلاء الذين ينبغى قتلهم فى رأيك ؟!

واحس فى تلك اللحظة ان الذى يتحدث عن لسان كل منهما ، ليس الزوج والزوجة .. وانما الدماء التى تجرى فى عروقه منذ الازل . وفجاة رآها تهرع الى ذراعيه ، وتخفى راسها فى صدره وتنفجر باكية ، لقد انهارت اخيرا .. ولكنه لم يشعر باى انتصار ، لانها رغم انهيارها لم تستسلم تماما لآرائه !

وقال لها هامسا :

ــ كفى بكاء .. اخشى ان يستيقظ جيرو .. فماذا تقول له ؟

وراح يمسح على شعرها بحنان ، وهو يقول :

ــ انك على صواب .. والحقيقة انه مهما يحدث خارج حياتنا لا ينبغى ان يكون له تاثير سيىء على سعادتنا ..

وراح يضمها الى صدره بنفس القوة التى كانت تضمه بها اليها، واحس فى تلك اللحظات انه لا توجد قوة فى الارض تستطيع ان تنال من حبهما الخالد !

وعندما اويا الى فراشهما ، مد يده اليها .. واستدارت نحوه فى استسلام وابتسام . وفجاة احس ان كل رغبة جنسية نحوها قد تلاشت ، وفى نفس اللحظة ، احست من عدم استجابتها الطبيعية له ، ان هذا هو نفس شعورها . ان مايحدث بين بلديهما قد امتد الى حياتهما وافسدها ..

الفراق

ادرك « آى ــ وان » مبلغ خطئه حين ظن أن كل ما يحدث خارج حياته وحياة « تاما » لا يمكن ان يكون له تأثير عليهما . لقد وجد ان ما يحدث بين بلده وبين اليابان له اكبر الاثر على حياته الزوجية .. كان كالشبح الرهيب الذى انتزع منهما كل احساس بالسعادة والاستقرار ، وملأ قلب « آى ــ وان » بالوحدة والشعور بالعزلة .. بل لقد بدأ يشعر ان طفله جيرو أصبح يشارك الشعب اليابانى فى النفور منه وكراهيته ، ولكنه عاد وقال لنفسه : ان هذا لايمكن ان يكون !

وكان اشد ما يثير عجبه وقلقه : عدم ورود اية خطابات اليه من ابيه او من « اى ــ كو » . وكثيرا ما كان يقول لنفسه : انه ليس من المعقول اطلاقا ان يهمل « آى ــ كو » ، على الاقل ، فى ارسال الخطابات اليه .. فما معنى هذا ؟!

معناه الواضح ان هناك رقابة عليه .. رقابة من ادارة الشركة، او من السلطات المسئولة ، تحول دون وصول خطابات اسرته فى الصين اليه !

وفى الوقت نفسه ، كان ممتنعا عن قراءة الصحف اليابانية بوجه عام حتى لا يسمم افكاره بما ينشر فيها ضد بلاده ، كما انه لم يكن يثق فى كثير مما ينشر بها يومذاك ..

وفى ذات يوم صباحا ــ اى عند وصوله الى مكتبه بالادارة ــ وجد رجلا يجلس فى مكتب يونجى ــ سبق له ان عرفه وكرهه حالما وقع بصره عليه

قال ذلك الرجل الذى لم يكن يتجاوز الثلاثين من عمره :

ــ اننى « هيديوشى » وقد صدر الامر بترقيتى من مدير مساعد فى فرع يوكوهاما الى مدير للمركز هنا .. ومن سوء حظى ان نظرى ضعيف ، ومن ثم حرمت من شرف الحرب من اجل بلادى فى الصين .. اجلس ..

واشار الى مقعد جلس عليه « آى ــ وان » بعد ان انحنى احتراما . وفجأة انفجر « هيديوشى » ضاحكا ، وقال :

ــ هل قرأت صحف هذا الصباح ؟

فقال « آى ــ وان » بهدوء ، وهو يشعر ان كراهيته نحو هذا الرجل تزداد :

ــ لا .. لم اقرأها ..

فألقى اليه بصحيفة ، وقال :

ــ اقرأها اذن .. ان الخبر الذى ورد فيها عن الصين مضحك جدا ..

وطاف « آى ــ وان » بنظراته على الصفحة الاولى ، ولم يلبث ان قرأ الخبر التالى الذى كان بعنوان : « الطيارون الصينيون يساعدون القوات اليابانية » و « الطيارون الصينيون يضربون شنغهاى بالقنابل .. اضحكوا .. اضحكوا . طيار صينى شاب اراد ان يسقط قنابله على أهداف يابانية ، فأسقطها على شوارع شنغهاى المزدحمة .. اضحكوا .. اضحكوا .. مئات من الصينيين يقتلون .. »

ورفع « آى ــ وان » رأسه ليرى « هيديوشى » لايزال يضحك ، ثم يقول :

ــ انها مأساة ، ولكنها تثير الضحك رغما عن النفس .. أليس كذلك ؟

وقال « آى ــ وان » بصوت مختنق :

ــ هذا افتراء .. هذا غير صحيح ..

فقال « هيديوشى » بحدة :

ــ لا .. ان جميع الصحف نشرت هذا الخبر فعلا عن وكالات الانباء المحايدة ، وان الجميع فى اليابان يضحكون . ولاشك ان الانجليز والامريكان سيعلمون الى اى حد يبلغ كرم الصينيين ،

وطيبة قلوبهم ، اذ راحوا يساعدون اعداءهم اليابانيين بقتل مواطنيهم !

فقال « آى ــ وان » بنفس الحدة :

ــ اذن فانت تعترف ان اليابانيين يقتلون الصينيين !

فلوى « هيديوشى » شفتيه وقال :

ــ اننا لم نعد نحتمل اهاناتهم اكثر مما فعلنا .. لقد صبرنا سنوات ، ونحن نتحمل اساءاتهم ، وتحاملهم ومفترياتهم ، واغتيالاتهم لرجالنا .. ومن ثم قرر امبراطورنا ان نضع حدا لعداواتهم لنا ، وأن ينتزع كراهيتهم لنا من قلوبهم حتى يتعاونوا معنا ..

فحملق « آى ــ وان » فى وجهه وقال :

ــ اتعنى ان تقول انكم ستستمرون فى قتل رجالنا ، واغتصاب نسائنا ، وتدمير مدننا ، وسفك دمائنا ، حتى نتعلم كيف نحبكم ؟

وجاء دور « آى ــ وان » لكى يضحك عاليا ، وهو يستطرد قائلا :

ــ اتريد منى ان احبك ! اترى انه يجب ان احبك يا مستر « هيديوشى » ..؟!

وعندئذ قال « هيديوشى » مرتبكا :

ــ اننى لا اعنيك يا مستر « آى ــ وان » .. اننا ننظر اليك باعتبارك يابانيا ، لانك امضيت بيننا سنوات عديدة ، ومتزوج من سيدة يابانية

وتوقف « آى ــ وان » عن الضحك فجاة ، فقال له « هيديوشى » :

ــ ماذا بك ؟

ــ لا شىء .. لقد ادركت الحقيقة فى لحظة . حقا ليس هناك ما يثير الضحك

ثم نهض وانحنى ، وعاد الى مكتبه وهو يحس بالاختناق ، وبراسه يكاد ينفجر من الالم . وفتح درجا فى مكتبه ، وتناول بعض السجلات ، ثم تظاهر بالعمل ، بينما كان فى الحقيقة يعود بذاكرته الى صديقه « اين ــ لان »

انه يحاول ان يتذكر تلك القائمة التاريخية التى سجل فيها « اين ــ لان » جميع اعتداءات اليابان على الصين منذ فجر التاريخ . وكانت قائمة طويلة مليئة باغتصاب الاراضى ، واحتكار التجارة ، وتقديم القروض للاقطاعيين العسكريين لشن الحروب بعضهم على بعض ، وتهريب الافيون ليتعود الشعب الصينى ادمانه فينحل اخلاقيا وجثمانيا ، والاستيلاء على كياتشاو والمطالب الحادية والعشرين ، وغير هذا كثير ..

فكيف يمكن ــ بعد هذا كله ــ ان يكون يابانيا ؟!

وبعد يومين ، نشرت الصحف انباء جديدة .. ذلك ان « هيد يوشى » اطل براسه صباح يوم من مكتبه ، وقال « لآى ــ وان » وقد التمعت اسنانه بابتسامة صفراء :

ــ اننا الان نقوم بتدمير شنغهاى بطائراتنا الخاصة لا بطائرات الصين .. هل قرات صحيفة ازاكاماينيشى اليوم ؟

وحملق « آى ــ وان » اليه دون ان يجيب . وتمنى فى تلك اللحظة لو انه استطاع ان يسحقه بقدمه، كما يسحق الانسان حشرة سامة . ويبدو ان « هيد يوشى » ادرك معنى هذه النظرة ، فتراجع براسه الى مكتبه صامتا

ومع ذلك فان الكراهية لم تكن هى الحافز على هذه الخطوة التى استقر عليها رايه فى تلك اللحظة .. وانما كان السبب شيئا آخر مختلفا تماما .. سببا متغلغلا فى اعماق نفسه ، لا مجال فيه للكراهية او الحقد ..

ذلك انه سمع ذات يوم رجلا عجوزا ، يقول معلقا على مقتل ابنه فى الحرب : « اننى سعيد بتضحية ابنى الوحيد فى سبيل بلاده »

واضاءت هذه العبارة طريقه الذى راى ان واجبه يحتم عليه السير فيه . لقد راى ان هذا الطريق هو نفس الطريق الذى دفع به اثناء الشباب لان يضحى بكل ما كان يستمتع به من ترف الحياة فى سبيل خدمة وطنه ..

واحس فجاة انه عاد الى طبيعته القديمة .. طبيعته التى كانت

تجعله يحلم دائما برفعـــة وطنه ، ويكرس حيــاته من اجله .. لشد ما يحب هؤلاء الناس وطنهم . انه الحب الذى جعل وجـه ذلك الرجل العجوز يشرق بالسـعادة ، وهو يتحــــدث عن مقتل ابنه فى سبيل الوطن .. انه اعظم واسمى وأجمل حب فى الوجود !. انه الحب الذى يجعل اى حب آخر باهتا ، سخيفا ، مليئا بالانانية والضعف . وفى خضم هذا الحب المقدس ، قرر « آى ـ وان » ان يلقى بنفسه ..

وسار فى الطريق الى بيته ،وقد قرر ان يعود الى وطنه ليشارك قومه الكفاح ضد الغزاة . ولكن المشكلة التى كان يواجهها فى تلك اللحظة هى كيف يخبر « تاما » بهذا القرار !

وقرر أن يخبرها بمجرد وصوله الى البيت حتى لا يضعف او يتردد ..

قال لها حين هرعت اليه كعادتها تستقبله ، وقد توردت وجنتاها بالسعادة للقائه :

ـ اسمعى يا « تاما » يجب ان اعود الى وطنى .. انهم فى حاجة الى هناك !

وكان صوته هادئا حتى لا يزعجها ، ولكنه احس بجسمها يرتعد، وهو يضمها الى صدره . ورفعت وجهها اليه فى هدوء دون انتقول شيئا ، اما هو فقد استطرد يقول بسرعة :

ـ لقد كنت شقيا بائسا فى الاسابيع الاخيرة ، لانى لم اكن ادرى ماذا ينبغى ان افعل ..

واومات براسها ، ومسحت عينيها بطرف كمها ، وقالتببساطة :

ـ يجب طبعا ان تعود الى وطنك ، اذا كنت ترى انه فى حاجة اليك !

ثم اردفت قائلة ، وهى تغص بحلقها :

ـ اننى كمواطنة يابانية ، افهم شعورك تماما ..

وكان يشعر بقلبها يخفق بشدة على صدره ، ويبين مدى اضطرابها ، رغم تظاهرها بالهدوء ..

وعاد يقول هامسا :

ـ وانت تعرفين ان هذا كله لن يكون له اى تاثير على حبنا ..

فتراجعت عنه قليلا ، وقالت :

ـ طبعا .. طبعا .. بكل تاكيد . ما شأن هذا بمشاعرنا الخاصة ؟! ولكن علينا الآن ان نفكر فيما ينبغى ان نفعل قبل رحيلك وبعده ..

قال لها وهما جالسان فى غرفتهما ، جنبا الى جنب ، ينظران فى سكون الليل الى البحر البعيد :

ـ ماذا ستفعلين بالطفلين بعد رحيلى ؟

وكانت الاجابة معدة ، اذ قالت فورا :

ـ يمكننا طبعا ان نعود فى اى وقت للاقامة مع ابى .. انه كما تعلم شديد التعلق بهما ..

فقال لها بعد تردد :

ـ هل ستعاونيهما على ان يتذكرانى ؟

واحس بيدها تضغط على يده ، ثم قالت :

ـ هل يجب ان اتخلى عن وفائى كزوجة لان هذه الحرب تلقى بظلها الكئيب علينا ؟

ثم اردفت تقول بحماس :

ـ وهلتظن انىاعتب عليك او غاضبة منك ؟ .. انك بهذا الرحيل لا تتخلى عنا او تهجرنا ، وانما انت تؤدى واجبك نحو وطنك الذى هو اغلى واعز من الزوجة والابناء .. لســـوف اقول لكل منهما : افخر بابيك الذى ذهب للدفاع عن وطنه . اننى اريد ان تصنع لك صورة كبيرة كما انت الآن . ولســوف اضع هـذه الصورة امام الطفلين فى ابرز مكان ، ثم نضع كل يوم الازهار حولها ، ونصلى من اجلك ..

وتهدج صوتها ، وتوقفت عن الحديث فجأة ..

وقال هو متاثرا :

ـ لسوف اصنع هذه الصورة غدا ..

واحس بجسمها يرتعد بجانبه ، ولكنها قالت بصوت هادىء بعدا فترة صمت :

ــ هل ستحتاج الى حقيبة سفر اخرى جديدة ، او ان التى لدينا تكفى ؟

ــ انها تكفى ، لاننى لن آخذ معى الا القليل جدا ..

ولما رآها ترتعد بقوة ، ضمها الى صدره وراح يمسح على راسها وقال :

ــ مهما طال امد هذه الحرب ، ومهما حدث ، فسوف نلتقى مرة اخرى ما دمنا على قيد الحياة ..

فهمست قائلة :

ــ عندما يأتى الوقت المناسب ، ارسل الى .. وسوف آتى اليك بالطفلين فى اول باخرة تبحر من ناجازاكى

وبعد برهة صمت ، قال :

ــ اعتقد اننى يجب ان استقل الباخرة التالية ، انها ستبحر بعد اربعة ايام . وهذه فترة كافية لاعداد كل شىء . ويجب ان امضى واخطر والدك

ــ لا .. لسوف اخبره انا .. اننى لا اريد ان افترق عنك لحظة فى هذه الايام الاربعة !

ــ الا ترين اننى اذا لم اخبره فقد يظن انى ..

ــ لا .. لا ... انهم جميعا سوف يقدرون موقفك ، ويفهمون احساساتك

ثم اردفت قائلة فى زهو :

ــ ان اى يابانى يستطيع ان يفهم حقيقة شعورك فى مثل هذا الموقف

وجاءت اخيرا لحظة الفراق .. وكان « آى ــ وان » يستطيع ان يرى من شرفة بيته الباخرة التى سيستقلها فى الميناء ، وقد تصاعد الدخان من مداخنها استعدادا لابحارها ..

وكانا قد اتفقا على الا يخبرا الطفلين بشىء .. ومن ثم خرجا اليهما ، وبد كل منهما فى يد الآخر ، حيث راياهما يلعبان فى الحديقة ، ويحاولان اقامة سد صغير على مياه الجدول . ووقف «آى ــ وان» ينظر اليهما ، وهما مستغرقان فى عملهما ، وقد احس بقلبه يعتصر فى صدره وينزف دما ..

وكان يتساءل : هل سيراهما مرة اخرى بعد ان يستدير بظهره اليهما ويرحل ؟

وخشى ان يضعف فى تلك اللحظة ، فضم « تاما » الى صدره ، وقبل وجنتها وهو يقول :

ــ لسوف ارسل اليكم لادعوكم ، بمجرد ان يحين الوقت المناسب ..

ثم استدار ، ومضى ..

في أرض الوطن

تعرف « آى ــ وان » على ظهر الباخرة بمواطن صينى عائد من امريكا للدفاع عن وطنه ، وكان قد هاجر اليها منذ شبابه الباكر . وكان يدعى « جاكى ــ ليم » ، وكان يشتغل كواء فى شيكاغو ..

ولما وصلت الباخرة الى شنغهاى ، صعد « آى ــ كو » اليها لاستقبال اخيه « آى ــ وان » وشعر « آى ــ وان » بالسرور حين راى ان « آى ــ كو » لم يصحب معه زوجته الافرنجية . وكان مرتديا ملابس ضابط برتبة كابتن ، وكانت فاخرة انيقة جعلت « جاكى ــ ليم » ينظر اليه مدهوشا فى شىء من الرهبة والعجب . وبعد ان تبادل الشقيقان التحية ، قال « آى ــ وان » :

ــ هذا يا « آى ــ كو » مواطننا الباسل « جاكى ــ ليم » الذى ترك اسرته وعمله فى امريكا وجاء للدفاع عن وطنه ..

وتقدم « جاكى ــ ليم » مترددا ، ومد يده وهو يبتسم فى حياء، ولكن « آى ــ كو » نظر اليه برهة متجاهلا اليد المبسوطة ، ثم انحنى بايماءة خفيفة ، ثم استدار بظهره اليه ليستأنف الحديث مع اخيه . ولاحظ « آى ــ وان » العرق ينصب من جبين « جاكى ــ ليم » وهو يعيد يده الى جيبه فى خجل شديد

وارسل « آى ــ وان » نظرة غاضبة الى اخيه « آى ــ كو » ، ثم قال « لجاكى ــ ليم » :

ــ ارجو ان تكتب الى يا « جاكى ــ ليم » بمجرد وصولك الى مسقط راسك ، واخبرنى باسم الفرقة التى ستنضم اليها ..

وارتسمت ابتسامة بلهاء على وجه « جاكى ــ ليم » وقال :

ــ بكل تأكيد .. اننى لست بارعا فى الكتابة .. ولكننى ساحاول

وتصافحا ، وافترقا ..

وقال « آى ــ وان » وهو يستقل مع اخيه السيارة الفاخرة التى كانت فى انتظارهما خارج الميناء :

ــ ان « جاكى ــ ليم » مواطن طيب شديد الحماس لوطنه .. وهو ذاهب الآن الى جده فى كانتون ليراه ، ثم يسجل اسمه للاشتراك فى هذه الحرب ..

وكان « آى ــ وان » يريد ان يجعل « آى ــ كو » يقدر بطولة هذا الرجل الذى ترك كل شىء ليدافع عن الوطن . ولكن « آى ــ كو » قال باستخفاف :

ــ ان لدينا الكثير من امثاله .. اكثر مما نريد ! انهم حمقى، متحمسون ، ولا شىء غير هذا . لقد كادوا يصيبوننا بكارثة حين اسقطوا القنابل على شنغهاى . وامس فقط اسقطوها على باخرة امريكية ، وهم يحسبونها يابانية .. وطبعا اضطررنا للاعتذار ودفع مئات الآلاف من الدولارات على سبيل التعويض . اننى فى الحقيقة لم اعد اشعر بالفخر لاننى مواطن صينى منذ جئت !

وادرك « آى ــ وان » ان الزوجة الاوروبية هى المسئولة عن هذه الحالة النفسية التى يعانيها اخوه .. لا شك انها راحت تنتقد كل ما تراه ، وتشكو من كل شىء ، وتنغص حياته بالتذمر لاتفه سبب ، حتى لو كان السبب حرارة الجو صيفا ..

وعاد « آى ــ كو » يقول :

ــ الحقيقة يا « آى ــ وان » ان اليابانيين متفوقون علينا فى كل شىء .. فى البحر والبر والجو .. هذا عدا الفساد الذى ينخر فى قلب حكومتنا .. تصور ان امراة هى التى تراس السلاح الجوى باكمله ..!

ــ امراة ؟ من هى ؟..

ــ مدام شيانج ــ كاى ــ تشيك ! .. انها سيدة كل مؤهلاتها للوصول الى هذا المنصب هى كونها زوجة لرئيس الحكومة ! اننى سعيد لسفرى الى كانتون ..

ــ هل انت مسافر الى هذه المدينة ؟

ــ نعم .. ستسافر الاسرة كلها فيما عدا ابى .. وقد سبقتنا

فريدا منذ ثلاثة اسابيع . انها لم تستطع الحياة هنا ، كما انها رفضت الاقامة فى بيت واحد مع العجائز .. انها حساسة جدا ..

وكاد « آى — وان » ان يضحك وهو يسمع العبارة الاخيرة ، ولكن « آى — كو » استطرد قائلا :

— اما انا فسوف استلم منصبا تحت رئاسة الجنرال باى .. هذه هى اوامر الجنرال شيانج — كاى — تشيك

— ومتى ستسافر الاسرة ؟

— الليلة ..

وخيم الصمت على الاخوين .. وكان « آى — وان » طوال الطريق يرى آثار الدماء فى كل مكان بالمدينة .. فى شوارعها ، ومبانيها ، ومتاجرها ، وعلى وجوه سكانها .. واخيرا قال « آى — وان » :

— اخبرنى يا « آى — كو » بحقيقة ما يجرى هنا !

فهز « آى — كو » كتفيه المزينتين بالشرائط العسكرية ، وقال باستخفاف :

— كما ترى .. انالناس يجرون هنا وهناك كما ترى ، بلا نظام او هدف معين ، ويبدو ان الدمار سوف يلحق كلشىء ، لان النظام معدوم هنا تماما . وان شيانج يجلس فىالعاصمة نانكنج كالعنكبوت فى وسط بيته المنسوج ، الا انه لا يصيد ذبابا ..!!

وضحك « آى — كو » مما ظنه فكاهة بارعة ، بينما قال « آى — وان » فى لهفة :

— ولكن .. لا بد ان هناك خططا موضوعة ومعدة للتنفيذ فى الوقت المناسب

فرد « آى — كو » قائلا :

— اننى لم ار شيئا من هذا القبيل ، وعندما عدت من المانيا ، كنت اظن انى ساجد جيوشا منظمة ومدربة على النمط العسكرى الحديث ، ومزودة باحدث ادوات القتال .. ولكننى فوجئت برؤية مجموعات من الجنود ، كل مجموعة تفعل ما يحلو لها ، ولا تطيع اوامر احد ، وتهجم على الاعداء فى الوقت غير المناسب ، وتنسحب بغير انتظام عندما لا يجوز الانسحاب !

وهنا قال « آى — وان » معرضا باخيه :

— من العجيب ان اسمعك تتحدث عن النظام والطاعة !

واحمر وجه « آى — كو » وقال :

— تعلمت هذا فى المانيا .. وسر تفوق الجيوش اليابانية هو النظام والطاعة . ولهذا فاننا لن ننتصر ابدا طالما ان هذا هو حالنا ...

وراى « آى — وان » ان يغير موضوع الحديث ، فقال :

— الم يسمع احد من افراد الاسرة شيئا عن بيونى ؟

— لا .. مطلقا .. وهذه هى نتيجة عنايتنا بها ، ورعايتنا لها ، وكانها ابنتنا ..

— لا تنس انها كانت تعمل نظير هذا كله ..

▱

وكان القصر كما تركه « آى — وان » تقريبا ، الا انه بدا اكثر وحشة وكآبة وصمتا . ولم تعرفه جدته التىكان الكبر قد افقدها نور البصر ، وانقل سمعها ، وامتص ماء الحياة من جسمها ، ولكن جده كان على حاله ، وان بدا اكبر سنا بطبيعة الحال ، لقد رآه مرتديا بذلة الماريشالية ، ومزينا صدره بالنياشين والاوسمة التى اشتراها على مدى السنين ، وامامه الخرائط والمشروعات التى يرى ان فيها النصر المؤكد على الاعداء ..

واستقبلته امه بالدموع والقبلات ، وقد بدت اكثر سمنة ، واكبر عمرا .. واخيرا اقبل والده من الخارج ، فعانقه ورحب به ، ثم انفرد معه فى غرفته الخاصة . وكان الوالد قد بدا اكثر هدوءا ، ولكن المشيب كان قد خط كل شعرة فى راسه

قال له :

— انك لن تسافر مع الأسرة الليلة الى كانتون ، لان الجنرال شيانج — كاى — تشيك سيعهد اليك بمهمة خاصة ..

ونظر « آى — وان » الى والده فى دهشة . ايريد شيانج — كاى — تشيك ان يتعاون معه ، وهو نفس الرجل الذى اراد يوما ان يقتله ، والذى لا شك انه قد قتل « آى — لان » وغيره من الشبان الذين كانوا يريدون اصلاح امر بلادهم !

وقال اخيرا :

ـ حسنا يا ابى .. كما تريد ..

ثم اردف قائلا :

ـ ارجو ان تأذن لى بالذهاب الى غرفتى لاستريح قليلا ..

واومأ له والده براسه ، فنهض وذهب الى باب غرفته الخاصة ، ففتحه ودخل وهو يتوقع ان يرى بيونى تسدل الستائر ، او ترتب الفراش ، او تزيل الغبار عن المكتب ، كما تعود ان يراها . ولكنه راى كل شىء فى الغرفة مرتبا ، منظما ، نظيفا ، كانه لم يتركها الا فى اليوم السابق

وتذكر شيئا .. تذكر الصفحات التى كان « ابن ـ لان » قد كتب فيها تاريخ حياته ، وافضى بذات قلبه فى سطورها . فأسرع « آى ـ وان » الى الدرج الذى وضع فيه الصفحات تحت مجموعة مهملة من الكتب ، ولكنه لم يجد لها اثرا ! وادرك من تراكم الغبار على الكتب ، وفى داخل الدرج ، ان احدا من سكان البيت لم يلمس الكتب اثناء غيبته .. اذن ، فمن اخذ هذه الصفحات ، وهل كانت هذه الصفحات التى سرقت سببا فى القبض على زملائه فى الجمعية ، ومصرع صديقه الحميم « ابن ـ لان » ؟!

وتفصد العرق من جبينه ، وهو يتخيل والده ـ لا .. ليس والده .. ان والده لم يكن يدخل غرفته هذه اطلاقا .. لا شك انها بيونى .. ولعل اختفاءها يفسر هذه الخيانة التى ارتكبتها .. واذا صح هذا ، فسوف يكون هو المسئول عن هذه الكارثة التى حاقت بزملائه ..

واستبدت به الهواجس حتى اطارت النوم من عينيه معظم ساعات الليل .. وفى الصباح ، سأل والده وهما على مائدة الافطار :

ـ كثيرا ما تساءلت يا ابى ، خلال هذه السنوات ، عن الشخص الذى حدثك عن جمعيتنا الثورية السرية ..

واجاب ابوه بهدوء :

ـ انه شيانج ـ كاى ـ تشيك بنفسه ..

ـ عجبا ! وكيف عرف هو ؟ ..

ـ انه يعرف كل شىء . وكثيرا ما تحدثت معه على انفراد ، لنقرر ما ينبغى ان يصلح لبلادنا ، واتفقنا على ان نقدم له ـ نحن اصحاب الأموال ـ ما يحتاج اليه من قروض لتحرير الوطن من الفساد ، بشرط ان يقضى على الشيوعيين جميعا . ولما اطلعنى على القائمة التى تحمل اسماء افراد جمعيتكم ، فوجئت باسمك بينها .. وعندئذ اقسمت له ان ارسل بك الى خارج البلاد حتى ينضج تفكيرك ، وتعلم ان الأمم لا تنهض على مثل هذه المبادىء الهدامة !

ـ الم يخبرك عن اسم الشخص الذى قدم اليه القائمة .؟!

ـ نعم اخبرنى .. انه زميل لكم يدعى « ينج ـ ليو »

وتنهد « آى ـ وان » فى ارتياح وقال :

ـ اذن فهو الخائن ..!

وقال والده فى ازدراء :

ـ وكان هو اول من علق فى المشنقة .. ان شيانج لا يحب الخونة ، ايا كانت الفائدة التى يجنيها منهم ..

فقال « آى ـ وان » مدهوشا :

ـ ولكن كيف يغريه ويرشوه ويستفيد منه ، ثم يقتله ؟

ـ لأنه يعلم ان الذى يخون زملاءه ، لا يتورع عن خيانة رؤسائه . وهو رجل حازم قوى عنيف ، الا انه صادق مع نفسه .. انه يفهم كل شىء ، ويكتسح امامه جميع الذين لا يثق فيهم بعد ان يستنفد اغراضه منهم

ـ انه فى هذه الحالة يكون انتهازيا !

فهز الوالد كتفيه ، وقال :

ـ ان الانتهازية قد تكون فى بعض الظروف حكمة وفضيلة ، تماما كالانسحاب فى المعركة .. اذا ثبت ان الصمود لن يؤدى الا الى مزيد من الخسائر !

ونقر الوالد على المائدة ، وقال :

ـ اؤكد لك يا « آى ـ وان » ان هذا الرجل هو الوحيد فى الوقت الحاضر الذى يستطيع ان يوحد قوى البلاد لمقاومة الغزو اليابانى . وهذا ماجعله يقضى على الشيوعيين حتى لاتقوم الحروب الاهلية بينهم وبين اصحاب المذاهب الاجتماعية الاخرى ، فتتمزق

وحدة البلاد .. وينتهز اليابانيون الفرصة فيلتهموننا جميعا ..

وفجاة قال الوالد ، يغير موضوع الحديث :

ــ كيف حال زوجتك اليابانية ؟ اعتقد انك كنت اكثر توفيقا فى الزواج من اخيك « آى ــ كو » .. ان زوجته البيضاء ساخطة هنا على كل شىء . ولكننى اعرف ان الزوجة اليابانية هى احسن زوجة فى العالم . انها تدرك تماما ان مكانها يجب ان يكون بجانب زوجها فى جميع الظروف . ولهذا باركت زواجك بها . واعتقد ان هذه الحرب لن يكون لها اثرها السيىء على علاقتكما . ان الحمقى والجهلاء فقط هم الذين يخلطون بين العلاقات البشرية العامة ، وبين سياسة الدول وخلافاتها !

وامتلأ قلبه بالعرفان لابيه الذى كان صوته عندئذ مفعما بالحب والحنان . واحس بالرغبة فى ان يقول له كل شىء عن « تاما » . واخيرا قال :

ــ انها زوجة رائعة يا ابى .. لم ار فى حياتى انسانة وفية مثلها .. انها متفانية فى الاخلاص لى ، وانا لا افكر فيها على انها يابانية ، وانما على انها زوجتى وشريكة حياتى وام ابنائى ..

وقال الوالد وقد بدا كانما يفكر فى شىء آخر :

ــ اجل ، اجل .. ولكن .. كيف ستتراسل معها ؟ ان من الخطر فى الوقت الحاضر ان تتراسلا مباشرة . ولهذا اقترح ان تتراسلا عن طريق البنك .. فهذا اسلم ، لانه لو علم احد من المتهوسين انك تراسل زوجة يابانية ، فربما اغتالك . ولهذا ارسل خطاباتك على عنوانى بالبنك ، وسوف ارسلها اليها عن طريق شركة ابيها . واطلب منها ان تفعل المثل ..

وازداد احساس « آى ــ وان » بالعرفان لجميل ابيه ، ولكنه قال :

ــ شكرا جزيلا يا ابى . ولكن ، الا يعرضك هذا للخطر ؟

فابتسم والده ، وقال :

ــ لا .. انهم جميعا يعرفوننى ، ولا يجرؤ احد على اغتيالى ، لانى صديق شخصى لشيانج ــ كاى ــ تشيك . والجميع يخشونه ويهابونه . وسوف ترى بنفسك حين تقابله انه يبعث الرهبة فى النفس ..

الفصل السابع عشر

مفاجأة العمر

واحس « آى ــ وان » بالرهبة قبل ان يدخل مكتب الجنرال شيانج ــ كاى ــ تشيك . لقد استقبلته فى غرفة الانتظار بمركز القيادة العامة فى نانكنج سيدةشابة صينية الملامح ، اوروبيةالسمت .. فى حركاتها وسكناتها وطريقة حديثها . وعلم انها زوجة الجنرال الاخيرة التى تزوجها بعد ان طلق جميع زوجاته الاخريات ، وانها سكرتيرته الخاصة ، ورئيسة السلاح الجوى ايضا ..

قالت له بعد ان استقبلته :

ــ ارجو ان تكون على حذر ياسيدى .. ان الجنرال لايحب ان يتحدث احد معه بغير اللغة الصينية ، وهو يغضب جدا اذا ادخل احد بعض الكلمات الاجنبية فى حديثه معه . وكثيرا مايقول : « اليست اللغة الصينية قادرة على التعبير عن كل شىء »

ورد « آى ــ وان » قائلا وهو يبادلها الابتسام :

ــ اطمئنى ياسيدتى ، ساكون على حذر فى هذا الشان ..

ولما دخل على الجنرال ، وجده جالسا الى مكتبه ، مهيب السمت فعلا ، مزموم الشفتين وهو يقلب فى بعض السجلات امامه . واخيرا رفع راسه الى « آى ــ وان » ونظر نحوه بثبات برهة ، ثم قال :

ــ ان والدك صديقى ..

وانحنى « آى ــ وان » فى احترام ، بينما استطرد الجنرال قائلا وهو يتناول خطابا مختوما بالشمع الاحمر :

ــ ان لهذا الخطاب اهميته البالغة . واريد ان تسلمه الى قائد معين فى الجيش الشيوعى . وهو سيسلمه بدوره الى اثنين من قواد هذا الجيش

وقال « آى ـ وان » :

ـ حسنا ياسيدى . .

ولكنه فى الوقت نفسه لم يستطع ان يفهم كيف يراسل هذا الرجل اعداءه الذين اراد يوما ان يذبحهم عن آخرهم . وقبل ان يمعن التفكير فى هذا الشأن ، سمعه يقول :

ـ لقد اخترتك لتسليم هذا الخطاب لان والدك اكد لى انى استطيع ان اضع ثقتى فيك . . فاذا ثبت العكس ، فسوف يكون مصيرك هو نفس مصير كل خائن !. . اننا نمر بظروف لامجال فيها للرحمة . . ان والدك يعرف هذا ، وينبغى ان تعرفه ايضا ، وان طائرتى الخاصة معدة لك . . وسوف ترحل عليها فورا . .

وقال « آى ـ وان » :

ـ لحظة واحدة ياسيدى الجنرال . . هل انتظر حتى آتى بالرد ؟

ـ سوف تنتظرك الطائرة حتى تعود بك . . .

ثم ضغط على زر جرس امامه ، فانفتح الباب ، ورفع « آى ـ وان » يده بالتحية العسكرية على الطريقة الالمانية . وعندئذ سأله الجنرال بحدة :

ـ هل انت ايضا مدرب عسكريا ؟ لقد ظننت ان اخاك فقط هو الذى تلقى علومه العسكرية فى الخارج . .

ـ اننى لم اذهب الا الى اليابان . .

ـ وهل تعلمت الفنون العسكرية هناك . .

ـ لا . . تعلمتها فى بيت ابى على يدى ضابط المانى . . .

وضغط الجنرال على جرس امامه ، فأغلق الباب مرة اخرى ، ثم قال لـ « آى ـ وان » :

ـ قيل لى ان اليابان على وشك الانهيار داخليا ، فهل هذا صحيح ؟

ـ لا . . هذا ابعد شىء عن الصحة . .

ـ وهل الرخاء موفور هناك ؟

ـ اجل . .

ـ قيل لى ان اليابانيين لايريدون الحرب . فهل هذا صحيح ؟

ـ انهم على ولاء كبير لحكومتهم . .

ـ هل انت واثق مما تقول ؟

ـ كل الثقة . .

ـ وهل هم لايزالون يعبدون الامبراطور ؟

ـ اجل . .

وهز الجنرال رأسه ، ثم قال فى صوت ينم عن الاسى :

ـ اذن فهم يكذبون على . . هؤلاء الذين حولى . انها ستكون حربا طويلة الامد !

ـ نعم ياسيدى الجنرال . . يجب ان نوطن انفسنا على انها حرب طويلة الامد !

واوما الجنرال برأسه ، وقال :

ـ هذا يعنى ان علينا ان ندعهم يستنفدون قواهم كلها ، وينشرونها فى اكبر مساحة ممكنة ، ثم نبدأ فى الهجوم عليهم وطردهم بعد ان نستكمل جميع استعداداتنا . .

وفتح الباب ، واطلت مدام شيانج ـ كاى ـ تشيك برأسها وقالت :

ـ اليس من الافضل ان يبدأ المستر « آى ـ وان » رحلته الآن حتى يتمكن الطيار من الهبوط فى منتصف الطريق قبل الظلام . .

ـ اجل . . اجل . اذهب يا « آى ـ وان »

* * *

واحس « آى ـ وان » وهو يطير فى سماء بلاده بالزهو يملأ قلبه . لقد طار على الجزر اليابانية ، وامكنه الآن ان يقارن بين تلك الحفنة من الجزر المتناثرة فى المحيط الهادى ، وبين هذه البلاد الشاسعة الواسعة التى يتكون منها وطنه . ومع الزهو ، احس بالامن . . لتطل الحرب او تقصر ، فليس فى هذا العالم قوة تستطيع ان تسيطر على هذه البلاد المترامية الاطراف ، التى لاتزال مساحات كبيرة منها عذراء لم تلمسها قدم رجل اوروبى !

وظلت الطائرة محلقة من الضحى الى مابعد العصر . وكان يقودها طيار امريكى شاب قدمته مدام شيانج ـ كاى ـ تشيك الى « آى ـ وان » قائلة :

ـ هذا هو الطيار الكابتن ماجورك يامستر « آى ـ وان »

وكان ذلك بعد ان صعد « آى ـ وان » الى الطائرة واتخذ مجلسه فيها . وقد سلمت مدام شيانج ـ كاى ـ تشيك الى كل منهما كيسا صغيرا وهى تقول :

ـ هذا هو طعام الغداء ..

وكان « آى ـ وان » قد تناول من هذا الكيس طعام الغداء المكون من رغيفين من الخبز الافرنجى ، وبعض شرائح اللحم والمشهيات ..

وعندما اوشكت الشمس ان تغيب ، اذا بالطائرة تهبط فى حقل غير مزروع فى مكان ما غربى الصين ..

ومضى الكابتن ماجورك بـ « آى ـ وان » الى حانة قريبة من ذلك الحقل ، تعود ان يبيت فيها كلما هبط فى ذلك المكان ليلا . وبعد ان تناولا طعام العشاء ، اويا الى الغرفة المخصصة لهما .. وهناك قال الكابتن لـ « آى ـ وان » :

ـ هل زرت الولايات المتحدة الامريكية ؟

ـ لا .. ولكن يبدو مما قرات عنها انها بلاد لطيفة ..

فقال ماجورك بحماس :

ـ انها جنة الله فى ارضه .. ولست ادرى لماذا لا استقر فيها . اننى كلما ذهبت اليها لأستقر ، شعرت بالحنين للعودة الى هنا .. يبدو ان نداء المغامرة هو الذى يدعونى !

ونهض الاثنان فى الصباح ، وتناولا افطارهما بسرعة ، ثم هرعا الى الطائرة التى كانت فى حراسة بعض الجنود المتطوعين .. وحلقا بها فى الطريق الى نهاية الرحلة . وكانت الطائرة فى هذه المرة تحلق نحو الشمال الغربى فوق سلاسل من الجبال والصحراوات والسهول البرية الجرداء ، ولما مالت الشمس نحو المغيب بعد الظهيرة ، اشار ماجورك الى مكان ما تحته وقال :

ـ سوف نهبط هنا .. لقد وصلنا ..

واغلق المحرك ، ولم تلبث الطائرة ان هبطت كالحمامة ، على ارض واسعة ممهدة خارج اسوار احدى القرى ..

واسرع نحوهما الفلاحون من حقول الارز ، بملابسهم القطنية الزرقاء ، وقال ماجورك باسما وهو يهبط مع « آى ـ وان » من الطائرة :

ـ انك الآن فى قلب المنطقة الشيوعية ، وهأنتذا تراهم آدميين تماما مثلنا . والواقع انهم اشخاص لابأس بهم . وانى احب زعيمهم الذى ساصحبك الآن اليه .. انه انسان على جانب كبير من الكياسة واللطف ..

كان « آى ـ وان » مؤمنا فى قرارة نفسه بأن « ابن ـ لان » مات قتيلا ، بحيث رفض اطلاقا ان يصدق عينيه حين مضى به الكابتن ماجورك الى زعيم القوات الحمراء ، فاذا هو نفسه « ابن ـ لان » فى ملابس عسكرية قديمة عادية

كان جالسا الى منضدة من الخشب ، فى غرفة غير مرصوفة بالبلاط ، وليس بها الا مقعدان من الخشب ايضا . ولما رفع وجهه ، اخذ الاثنان يتبادلان النظر فى ريبة وعجب بعد عشر سنوات من الفراق . وكان الكابتن ماجورك فى تلك اللحظة يقول :

ـ ان المستر « آى ـ وان » يحمل رسالة خاصة من الجنرال اليك ..

ولكنهما لم يكونا ينصتان اليه .. وانما كانا يحملقان ، كل فى وجه الاخر ، واخيرا قال « ابن ـ لان » ببطء :

ـ انك لست « آى ـ وان » !

ـ انه انا .. ولكن كيف استطيع ان اصدق انك « ابن ـ لان » ؟

واخذ كل منهما يقترب من الآخر ، ثم يتحسس ذراعيه وكتفيه ووجهه ، ثم اذا هما فى النهاية يتعانقان ..

وقال « ابن ـ لان » :

ـ اين ذهبت ؟ اننى لم اسمع عنك شيئا .. كل ماعرفته ان بيونى اسرعت الينا فى صباح ذلك اليوم المشهود حيث كنا مجتمعين ، ولكنك لم تأت . وانتظرناك الى آخر لحظة ، ونحن نتوقع ان نراك

وقال ماجورك :

ـ آه ! ايعرف احدكما الآخر ؟ حسنا .. لا داعى لبقائى هنا . سوف امضى الى الطائرة لاصلح من شأنها وانظف محركاتها ..

ولم يره احدهما او يسمعه ، وانما كان « آى ـ وان » يقول :

ـ بيونى ؟ اذن فاليكم ذهبت حين غادرت القصر ؟

— نعم .. وهى هنا الآن ، معنا .. انها زوجتى منذ عشر سنوات ..!

وصفق « اين — لان » وسرعان ما اقبلت بيونى .. بيونى نفسها ، ولكن بلا يدين عاطرتين ، ولا اثواب حريرية ، وانما فى ثوب عسكرى ، ويدين خشنتين ، وشعر مهوش ، ووجه ضاحك ..

واندفعت اليه تعانقه ، وهى تهتف :

— « آى — وان » .. «آى — وان» .. « آى — وان » ..

وقال « آى — وان » بعد ان افاق من مفاجاة العمر هذه :

— اسمحا لى ان اجلس .. فان ساقى ستخذلاننى من فرط المفاجاة ، اننى لا اكاد افهم شيئا .. بل انى اشعر كانى فى حلم !

وبعد ان مسح العرق عن جبينه ، قال لبيونى :

— كيف حدث هذا ؟ كيف تزوجت « اين — لان » رغم انك كنت دائما تسخرين من مبادئه الثورية ؟

— ولكننى لم اكن اسخر منه هو .. لقد عثرت على تاريخ حياته فى تلك الصفحات التى كانت موضوعة تحت كتب قديمة فى احد الادراج . وبعد ان قرات هذا التاريخ ، احسست ان حياتى سوف ترتبط بحياة صاحبه .. ولم تخطىء مشاعرى !

وقال « اين — لان » بدافع الفضول :

— وانت يا « آى — وان » .. هل تزوجت ؟

— نعم .. منذ عشر سنوات ايضا ..

— ولك ابناء ؟

— طفلان ...

وكاد « آى — وان » ان يحدثهما عن زوجته اليابانية وطفليه ، ولكنه قرر ان يخفى هذه الحقيقة ، وهو يتذكر مدى كراهية « اين — لان » لليابانيين بوجه عام ..

وقال « آى — وان » وهو يقدم الخطاب المختوم الى « اين — لان » :

— اليس من العجيب ان يكون شيانج — كاى — تشيك هو الذى يجمع بيننا الآن بعد ان كان سبب فرقتنا ؟

الفصل الثامن عشر

اللقاء الخطير

تناول « اين — لان » الرسالة المختومة بالشمع الاحمر ، وهو يقول :

— كنت انتظر هذه بين لحظة واخرى .. ولكن لم يخطر ببالى يا «آى — وان» انك ستكون الرسول بيننا وبين «شيانج — كاى — تشيك» . حسنا .. يجب ان احملها فورا الى اعضاء مجلس القيادة . انهم فى الانتظار .. وارجو ان تبقى حتى اعود اليك

ولما انصرف من الغرفة ، واصبح « آى — وان » بمفرده مع بيونى ، نظر اليها ، ونظرت اليه .. ثم لم تلبث بعد لحظة صمت ان راحت تساله عن جديه ووالديه واخيه « آى — كو » فراح يحدثها ببساطة عن افراد اسرته جميعا ، وذكر لها ان «آى — كو» قد تزوج ايضا ، ولكنه لم يخبرها انه تزوج عروسا اوربية ، وكذلك ابى — غريزيا — ان يحدثها بشىء عن « تاما »

وفيما كانت تنصت اليه ، بدا وجهها فى نظره يستعيد طابعه الاول الذى طالما عرفه ، ولكنه ظل يحمل طابع السنوات العشر ، كما كان وجه « اين — لان » يحملها ايضا ، والواضح انها كانت سنوات من الكفاح المرير ..

وعاد « اين — لان » الى الغرفة بوجه ينم عن الوقار والجد ، ولكن عينيه كانتا تتالقان بالحيوية والنشاط ، وقال لبيونى :

— ان ما كنت اتوقعه بفارغ الصبر قد حدث يا بيونى .. ان الجنرال شيانج يريد ان تتحد قواتنا ضد العدو المشترك !

وارسلت بيونى صيحة ابتهاج ، بينما استطرد « اين — لان » يقول :

ـ كثيرا ما قلت لك ان الجنرال شيانج رجل عظيم ، وقد اثبت انه ايضا رجل حكيم بعيد النظر يضع مصلحة البلاد فوق كل منازعات مذهبية .. حسنا ، على الآن ان اقنع الجنود بهذا .. لسوف اعقد اجتماعا مع رؤساء الوحدات العسكرية لابين لهم فوائد اتحاد قواتنا فى المعركة مع قوات الحكومة ..

فقالت بيونى بحماس :

ـ هل اذهب واطلب منهم ان يقرعوا الناقوس للاجتماع ؟!

ـ اجل يا بيونى ..

جلس « آى ـ وان » بجانب بيونى على الارضية الجافة لساحة التدريب العسكرى ،وكانت جموع رؤساء الوحدات العسكرية التابعة لقيادة « اين ـ لان » جالسة بغير انتظام ، ووجوههم جميعا مرفوعة الى « اين ـ لان » الواقف بالقرب من « آى ـ وان » استعدادا للحديث معهم ..

وارتفع صوته واضحا عاليا ، وهو يقول :

ـ انتم تعرفون ماذا فعلنا .. فمنذ ست سنوات اعلنا الحرب على اليابان ، وقد ضحك العالم علينا يومذاك . ولكننا بعد ثلاث سنوات قمنا بزحفنا التاريخى الطويل ، وقد تمزقت اقدامنا ، وانهارت ابداننا ، ومات الكثيرون منا ، ولكننا كنا نعرف من هو العدو الحقيقى لنا . انه لم يكن شيانج ـ كاى ـ تشيك الذى طاردنا بعنف الى داخلية البلاد ، وانما عدونا الابدى هو اليابان. وان الذى استطاع ان يطاردنا ويحارب اليابانيين فى آن واحد ، يستطيع الآن ان يطارد اليابانيين اذا نحن اتحدنا معه. انه الرجل الوحيد الذى يجب ان نسير جميعا وراءه نحو النصر ..

وارتفعت الاصوات عالية مدوية :

ـ بل انت يا « اين ـ لان » .. انت .. انت .. انت ..

فصاح « اين ـ لان » قائلا :

ـ لا .. ان الوقت لم يحن بعد لان اكون انا القائد نحو النصر، ولهذا ينبغى ان نواجه الامر الواقع ، وان نجعل مصالح البلاد فوق كل مصلحة اخرى . اننى اطالبكم بالاتحاد مع قوات الحكومة

لمواجهة العدو المشترك . اننى اريد منكم أن تنسوا انفسكم .. ان تنكروا مصالحكم الخاصة .. أن تكبتوا مشاعركم الذاتية .. واذكروا فقط بلادكم .. الصين

وخيم الصمت على الجميع .. وكانت بيونى تكتب باصبعها على الارض كلمة « الصين » اما « اين ـ لان » ، فقد عاد يهتف قائلا بعد أن تحدث طويلا فى هذا الشأن :

ـ الذى يوافق على هذا الرأى يرفع يده اليمنى ..

وارتفعت فى الجو مئات الايدى ، وهنا قال « اين ـ لان » :

ـ والذى يعارض الآن يرفع يده اليسرى ..

ولم ترتفع يد واحدة .. وعندئذ احنى « اين ـ لان » راسه، ثم استدار ببطء وتحرك بعيدا . وسرعان مانهض الجميع واقفين، وانصرف بعضهم ، ووقف بعضهم الآخر فى حلقات يتبادلون الحديث ..

وانتهى الاجتماع ، ورأى « آى ـ وان » صديقه «اين ـ لان» يتجه نحو غرفته البسيطة فى مركز القيادة ، وهنا وثبت بيونى واقفة ، وقالت :

ـ يجب أن اسرع اليه .. انه دائما يبدو مجهدا بعد مثل هذه الاجتماعات ..

ومضى « آى ـ وان » نحو الطائرة التى كان ماجورك الامريكى يضع الزيوت فى محركاتها ، وقال له :

ـ متى سنعود ؟

ـ فى الرابعة صباحا ..

ثم دنا الامريكى الى « اين ـ لان » الذى كان فى طريقه الى مركز القيادة واردف قائلا :

ـ هل تحقق له ما اراد ؟

ـ اجل ..

ـ انه رجل عظيم .. لا يقل عظمة عن شيانج . ولكننى اكثر اعجابا بشيانج لانه رئيسى المباشر

وقال له « آى ـ وان » :

— لسوف اكون هنا فى الرابعة صباحا ..

واصبح « آى — وان » بعد ذلك ضابط اتصال بين شيانج — كاى — تشيك وصديقه « اين — لان » . وكان يحمل الى كل منهما آراء الآخر ، ويعمل على تنسيق الخطط بين القوات التابعة للجيشين .. وكان شيانج قد تخلى عن نانكنج ، واستعد لاخلاء كانتون ، وكانت شنغهاى قد استسلمت للاعداء قبل ذلك . ولكن شعار المحاربين الصينيين كان يدور يومذاك حول بث روح المقاومة فى الشعب بصرف النظر عن سقوط المدن ، لان هذه يمكن استردادها فى الوقت المناسب !

وكانت اساليب الحرب التى يتبعها « اين — لان » تختلف كثيرا عن اساليبها التى يلتزمها شيانج — كاى — تشيك . كان « اين — لان » وزملاؤه القواد قد قرروا ان يحاربوا الغزاة اليابانيين بطريقة « اضرب واهرب » وهى طريقة حرب العصابات التى ثبت نجاحها فى مختلف الدول المناضلة ضد قوات عدو اقوى منها ، وهكذا كان جنود « اين — لان » يعملون فى الصباح بزراعة الارض ، ويبدون كأى مزارعين مسالمين ، ويتظاهرون حتى بالبلاهة اذا جاء الجنود اليابانيون يسألونهم عن اماكن رجال العصابات ، ولكنهم يتحولون فى الليل الى محاربين اشداء ، وفدائيين لا يشق لهم غبار .. فكانوا ينقضون فى وحدات قليلة على الحاميات اليابانية المتفرقة ، فيقضون على رجالها بسرعة ، ثم يرتدون كالاشباح الى معاقلهم الجبلية .. حيث يقضون بقية الليل ، قبل ان يعودوا الى مزارعهم فى الصباح !

ولما اعجب « آى — وان » بهذه الطريقة ، رتب مقابلة بين « اين — لان » والجنرال شيانج — كاى — تشيك ، وكانت النتيجة ان اعلن الجنرال تخليه عن الحرب النظامية امام قوات موفورة العتاد ، رائعة التدريب ، والتجائه الى حرب العصابات التى تناسب بلاده ، وتلائم طبيعتها كل الملاءمة ..

وكان « آى — وان » فى خلال هذا كله يراسل زوجته « تاما » التى كانت تبعث اليه برسائلها المفعمة بالاخلاص والتقدير ،

والتى كانت تذكر له فيها كل شىء عن طفليه بالتفصيل ! وقد اعربت عن استعدادها للحضور اليه مع طفليها حتى والحرب قائمة ..!

وفى ذات يوم ، وكان قد امضى بضعة شهور مع « اين — لان » مشتركا فى حرب العصابات الجبلية ، فوجىء بطائرة الجنرال شيانج — كاى — تشيك تهبط فى ساحة التدريب ، ثم يقفز منها الكابتن ماجورك ، ويسرع نحوه ويقول له بعد ان يحييه :

— ان الجنرال يريدك لامر هام ، فارجو ان تستعد للرحيل بعد ان اعد الطائرة لرحلة العودة ..

ودهش « آى — وان » لهذه الدعوة المفاجئة ، وخشى ان يكون الجنرال قد علم بأمر زوجته اليابانية « تاما » فقرر ان يستدعيه ، ويطلب اليه ان ينفض يديه منها ومن طفليه تماما .. فلو صح هذا ، فماذا يفعل ؟

ووجد نفسه يهز رأسه فى عناد واصرار ، ويغمغم كأنما يحدث شخصا امامه : « لا .. حسبى انى تركت عملى وزوجتى وابنائى لاشترك فى الدفاع عن وطنى ، واكثر من هذا لن افعل »

وحملته الطائرة الى مقر قيادة الجنرال شيانج فى هانكاو ، ولشد ماكانت مفاجأته حين راى مركز القيادة هذه المرة لا يعدو ان يكون بيتا صغيرا من الآجر ، ولما صلصل جرس الباب ، فتحه له خادم فى ملابس بيضاء ، وقد بدا من سمته انه كان يتوقع وصوله .. ثم قاده الى غرفة انتظار ، وطلب منه ان يمكث فيها قليلا ثم انصرف ، وما هى غير لحظات حتى فتح الباب مرة اخرى ودخل والده ، فنهض « آى — وان » واقفا وقد ازعجه ما بدا على الوالد من تحول وحزن واكتئاب ، وقبل أن يقول شيئا ، قال له الوالد بصوت الرجل المرهق :

— اجلس يا ولدى ..

وجلس « آى — وان » وراح ينظر محزون النفس الى ابيه الذى كان قد مضى عليه نحو عام دون ان يراه ، ثم قال اخيرا :

— ماذا بك يا ابى ؟..

فهز الرجل الكهل راسه فى اسى ، وقال :

ـ لا شىء اكثر من ان هذه الحرب سوف تقضى علينا بهذه الطريقة او بتلك ، لقد استلمت منذ ايام رسالة من نانكنج .. نانكنج التى ساهمت فى اقامتها على احدث طراز عصرى ، واشتركت فى رصف شوارعها واقامة مؤسساتها وانشاء حدائقها وتقديم القروض لاصحاب المبانى فيها .. نانكنج هذه قد دمرت الآن واصبحت خرابا

فهتف « آى ـ وان » قائلا فى فزع :

ـ هل تعنى انها .. تحطمت تماما ؟

ـ ان ما لم يتحطم منها اصبح فى يدى الاعداء ..

ثم انحنى الرجل الكهل ، وقال فى قلق شديد :

ـ ان الذى يزعجنى ويفزعنى حقا ليس موت الرجال وانهيار البيوت ، وانما انتشار الافيون وبيعه فى الاسواق بامر اليابانيين .. انهم بهذه الطريقة سيحطموننا تماما ..

ولشد ما فزع « آى ـ وان » حين راى الدموع تنحدر بغزارة على وجنتى ابيه . وكانت تلك أول مرة يرى اباه يبكى ، ومن ثم احس كان كل عبرة من دموع ابيه ، جمرة تحرق شيئا فى اعماق نفسه . ومسح الوالد دموعه ثم قال :

ـ معذرة يا « آى ـ وان » .. ان هناك اسبابا كثيرة اسالت هذه الدموع ، وانى لارجو ان تستطيع الذهاب معى بضعة ايام الى ضياعنا ، انها الضياع التى ستكون لك ولاولادك يوما ..

ودهش « آى ـ وان » حين سمع والده يخصه بالضياع دون اخيه « آى ـ كو » .. ولكنه علم السر فيما بعد ، واردف الوالد يقول :

ـ ان ضياعنا فى الاقاليم الداخلية بالصين. ولعل هذه الاقاليم هى التى ستبقى لنا فى النهاية حتى يحين الوقت المناسب لطرد الغزاة . اننا الآن نقوم بنقل كل شىء الى هذه الاقاليم .. المدارس والمصانع والمؤسسات والبنوك ..

وقال « آى ـ وان » بدهشة :

ـ هل ينوى الجنرال ان يتخلى عن هانكاو ايضا ؟

ـ نعم .. ونحن نرجو ان يكون مصيبا فى هذه الخطط ، والا فقد ضاعت الصين !

وساد الصمت الثقيل برهة .. ولم تلبث مدام شيانج ان اقبلت قائلة « لاى ـ وان » :

ـ ان الجنرال فى انتظارك مع الوالد ..

ودخل « آى ـ وان » مع ابيه ، وحيا الجنرال .. ثم جلسا برهة ريثما قدمت مدام شيانج الشاى اليهما ، ثم انصرفت . واخيرا قال الجنرال فجاة ، وبلا مقدمات :

ـ لقد ارسلت اليك لسببين .. الاول لاخبرك بمقتل اخيك « آى ـ كو »

وخيل الى « آى ـ وان » انه لم يفهم شيئا ، واحس براسه كانه يدور فى الهواء ، ونظر الى ابيه ، فرآه مطرق الراس فى ذلة وانكسار . وقبل ان يقول شيئا ، استطرد الجنرال يقول بلهجته الحاسمة القاطعة :

ـ سوف تريد أن تعرف كيف مات .. مات ميتة كل خائن لبلاده . لقد عرف انه ـ هو وخمسة من زملائه ـ يعملون على قلب نظام الحكم ، واجراء صلح مع اليابان

وتناول الجنرال قصاصة ورق من فوق المكتب ، وقدمها الى « آى ـ وان » قائلا :

ـ فى هذه الورقة اسماء الخونة الخمسة .. وقد كتبها الصينى « جاكى ـ ليم » .. فحملق « آى ـ وان » فى وجه الجنرال شيانج ، وقال :

ـ « جاكى ـ ليم » .. الصينى العائد من امريكا ؟

ـ اجل .. ولا تحقد عليه .. انه رجل امين شريف بسيط النفس ، وقد ساءه ما سمع من اشتراك اخيك فى هذه المؤامرة..

ولم يجرؤ « آى ـ وان » ان يسال الجنرال : كيف يحكم على اخيه بالخيانة ثم بالاعدام بناء على شهادة رجل آخر قد يكون موتورا او حاقدا لسبب ما !

ولكنه لم يتمالك نفسه من ان يسال قائلا :

ـ واين « جاكى ـ ليم » الآن ؟

— اعدته الى وحدته العسكرية ليواصل الحرب .. ولا اعرف ماذا حدث له :

وبعد برهة من الصمت ، قال الجنرال :

— اعتقد ان ما حدث لاخيك كان بسبب زوجته الاجنبية .. انها هى التى جعلته يحتقر ابنـاء وطنه ، وقد اصـدرت امرى باعادتها الى وطنها فورا ..

وعندئذ قال الوالد بصوت منكسر :

— اجل يا شـيانج .. انها هـذه الزوجة الافعى . لقد نفثت سمومها فى ابنى ، وجعلته ينقلب على مواطنيه .. وانى اشكرك على اعادتها الى بلادها ..

ولما تهدج صوت الوالد ، قال له الجنرال فى اشفاق :

— يمكنك ان تخرج الان يامسـتر واو ، انك فى حاجة الى الراحة ، واحب ان اقول لك ان ما حدث لابنك لن يكون له اى تأثير على صداقتنا الشخصية !

ونهض الوالد وانحنى باحترام ، ثم غادر الغرفة ..

وفجاة قال الجنرال شيانج لـ « آى ــ وان » :

— لقد اصبحت الآن الابن الوحيد لابيك ، ولاسرتك .. ونحن فى غير حاجة الى الجنـود المقاتلين ، لان لدينـا اكثر من حاجتنا منهم ، وانما نحن الآن احوج ما نكون الى مضاعفة الانتاج الزراعى حتى نسـتطيع ان نوفر للشعب ، وللمحـاربين .. الضرورى من الطعام ، وقد استقر الراى على ارسالك الى ضياع الاسرة لتتولى ادارتها ومضاعفة انتاجها ..

وقبل ان يرد « آى ــ وان » بشىء ، قال الجنرال وهو مقطب الجبين :

— انك متزوج من فتاة يابانية .. اليس كذلك ؟

— اجل ..

— قبل أن اصرفك الآن ، اريد ان اطمئن على ان هذه الزوجة اليابانية لم تترك فى نفسك عين الاثر الذى تركته الزوجة الاوربية فى نفس اخيك ..

وجمع « آى ــ وان » كل ما لديه من شجاعة معنوية ، وقال :

— وكيف تريد ان تطمئن يا سيدى الجنرال ؟

— هل يمكنك ان تتخلى عنها نهائيا ؟

— بأمر منك ؟..

— نعم ..

— لا .. لا استطيع ..

ثم قال بصوت الانسـان الذى قرر ان يحتفظ بكل حقـوقه الشخصية :

— لقد تركت عملى وزوجتى وابنائى وجئت بمفردى للاشتراك فى الدفاع عن الوطن .. وباكثر من هذا لا استطيع ان اضحى ، وعندما يسـود السلام ، سوف أدعو زوجتى للاقامة معى هنا . ان ابنائى صينيون بالجنسية ، وان زوجتى وفية لى ، مقـدرة لظروفى ..

ورمقه الجنرال بنظرة حادة ، ثم قال :

— اى نوع من النسـاء زوجتك هذه ؟

فتناول « آى ــ وان » من جيبه بعض رسائلها اليه ، وقدمها للجنرال الذى راح يقرأ فيها عبارات « تاما » النابضـة بالحب والتقدير والاعجاب ، والزاخرة بتفاصيل حياة الطفلين . وكانت كل رسالة تنتهى بهذه العبارات :

« اننا نضع الزهور كل يوم حول صورتك ، ونصلى من اجلك واجل السـلام ، ونتمنى ان نرى اليوم الذى يجتمع فيه شملنا مرة اخرى .. اننى احدث طفلينا عنك وعن شجاعتك وتفانيك فى حب وطنك حتى اصبحت فى نظرهما بطلا عظيما .. »

وكان « آى ــ وان » يرقب وجه الجنرال شيانج ، وهو يقرأ هذه الرسـائل .. فلما فرغ منها ، رفع وجهه ، ثم ابتسم لاول مرة ، وقال لـ « آى ــ وان » :

— اكتب اليها واخبرها اننا سنتخذ الاجراءاتاللازمة لاحضارها مع ولديك اليك فى اقرب فرصـة . والآن ، يمكنـك ان تنصرف استعدادا لاستلام ضياع ابيك وادارتها ومضاعفة انتاجها ..

وضغط الجنرال على الجـرس ، فلما اقبلت مدام شـيانج ، قال لها :

– أين خريطة مشروع الطريق الجديد المؤدى الى بورما ... لقد كانت فى يدى منذ لحظة ..

فضحكت زوجته وقالت :

– انها لا تزال تحت يدك على المكتب ..

والنصرف « آى – وان » وهذه الكلمات ترن فى اذنيه : الطريق الجديد نحو بورما .. هل تم انشاؤه فعلا ؟ لقد سمع ان آلافا من الرجال والنساء يعملون فيه. حسنا ! ان المشروعات الاصلاحية تجرى جنبا الى جنب مع الحرب . واذا كان الاعداء يضربون بالقنابل المدن الساحلية ، فان المواطنين ينشئون الطرق الجديدة الى الاقاليم الداخلية .. ولا شك ان هذه الطرق ستكون سببا فى « تحضير » هذه المناطق النائية .. ولا شك ان ابناءه ، حين يكبرون سيجدون انفسهم فى دولة كبرى تساير حضارة القرن العشرين

فمن يدرى ! ان كل شيء محتمل !..

تمت